KUNSTRÅDET
Danish Arts Council

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ي. پ. ياكوبسن
J. P. Jacobsen

Twitter: @alqareah
10.9.2015

السيّدة ماريّا غروبّة

Fru Marie Grubbe

رواية

ترجمة: جمال جمعة

تقديم: جريتا روستبول

السيّدة ماريّا غروبّة
Fru Marie Grubbe

رواية

ي. پ. ياكوبسن
J.P. Jacobsen

ترجمة: جمال جمعة

تقديم: جريتا روستبول

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

Twitter: @alqareah

السيّدة
ماريّا غروبّة
Fru Marie Grubbe

Twitter: @alqareah

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الدنماركي

Fru Marie Grubbe

Oversat af Jamal Jumá

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من المؤلف
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2013 by J. P. Jacobsen
All rights reserved
Supported by Danish Arts Agency – Literature Center
Arabic Copyright © 2013 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0848-6

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

Twitter: @dlqareah

مدخل إلى رواية
السيدة ماريا غروبة،
1876

بقلم: جريتا روستبول
وزيرة الثقافة الدنماركية

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

رواية ف. ب. ياكوبسن "السيدة ماريا غروبة" واحدة من أكثر الروايات شهرةً ونقاشاً وتناولاً في تاريخ الأدب الدنماركي. حين صدرت عام 1876 نفذت نسخها في بضعة أسابيع، وحتى ذلك وقت أصبح هذا النص المكتوب ببراعة رهيبة من أفضل نصوص النثر في تلك الفترة، وأضحى بشكله الحداثي الجديد نموذجاً للمدرسة الطبيعية التي كانت مجهولة من قبل.

نشأ الكاتب ينس بيتر ياكوبسن في بيئة ريفية في محيط مدينة ثيستيد البعيدة عن العاصمة، لكن أباه كان شخصاً ثرياً فأرسله إلى كوبنهاغن حين بلغ السادسة عشر من عمره، لكن الإقامة هناك لم تناسب الفتى فأخذ يعاني من الوحدة ومشاعر الحنين إلى البيت. في المدرسة لم تكن الأمور تسير على ما يرام أيضاً فرسب في الامتحانات المدرسية وتحتم عليه أن يعيدها، لكنه لاحقاً استطاع الالتحاق بالجامعة التي تم قبوله فيها فشرع بدراسة العلوم الطبيعية والأدب. انشغل الفتى ياكوبسن آنذاك بكتاب (أصل الأنواع) لداروين فعمل على ترجمة هذا العمل إلى اللغة الدنماركية، كما أثّر عليه الوسط الثقافي الذي كان يتزعمه آنذاك الكاتب جورج براندیز فأصبح جلياً لديه أنه سيكون شاعراً.

استطاع بعد فترة أن ينشر بعض القصائد، لكنّ بروزه الأساسي حدث عام 1872 بعد نشر مجموعته القصصية "مونز"، حيث حققت نغمة اللغة الجديدة، غنى الصور والانطباعات، حققت اختراقاً فنياً

Twitter: @alqareah

كبيراً. بعد ذلك مضى ياكوبسن يشقّ طريقه لإنجاز رواية "السيدة ماريا غروبة"، لكن الرواية استغرقت وقتاً طويلاً لإنجازها فقد كان مأخوذاً برغبة السفر والذهاب إلى الجنوب الألماني. في مشوار الرحلة عانى من مرض السل الأمر الذي جعل عمله الأدبي يصبح أقصر. بعد "ماريا غروبة" أصدر رواية أخرى سماها "نيلس ليهن" عام 1880 ثم توفي بعدها في مسقط رأسه عام 1885.

كانت طبيعة ياكوبسن خليطاً معقّداً من العلم، التكوين الفطري الطبيعي، والأحلام الرومانسية حول الرغبة والحب. وهذه التكوينات تجلت بشدة في لغته وأسلوبه، فقد اختار، وبشكل واع، أن يبتكر نصوصاً رومانسية من هذه الازدواجية: هنالك جزء آخر يتعلق بتعامله المحسوس الدقيق مع ما يسمعه ويراه، وجزء يتعلق بخلق أسلوب نثري جديد. لقد كان يعمل بشكل بطيء للغاية، وبمقدور المرء تلمس ذلك في كل صفحة من صفحات رواياته. السنون الأولى التي قضاها في كوبنهاغن كانت مشغولة بالبحث عن أصدقاء جدد ومحاولات شعرية لكتابة قصائد قام بطبعها فيما بعد.

عمله الكبير "السيدة ماريا غروبه" شرع بكتابته في عام 1873 وأنهاه عام 1876. الفصلان الأولان من الرواية نشرا على الملأ في مجلة جورج براندیز الشهرية "القرن التاسع عشر"، أكتوبر 1874 تحت عنوان: (من طفولة ماريا غروبة).

تبدأ الرواية التي تدور حول السيدة "ماريا غروبة" بحدث حقيقي استوحى منه كتّاب دنماركيون عديدون آخرون أعمالهم الأدبية، فعلى سبيل المثال كتب لودفيج هولبرغ عن ماريا غروبة في مجلة "الرسالة"، العدد 89 الصادر عام 1748، وكذلك ستين بليشر

Twitter: @alqareah

في "يوميات قرية"، سنة 1824، وذلك قبل أن يستوحي ياكوبسن موضوع العلاقة بين الريف والمدينة، بين الحياة في عزبة وبين مدينة كبيرة في روايته. كذلك تحتوي القصة الأصلية عن ماريا غروبة تحولات القدر بين الطبقات المختلفة.

ماريا غروبة الحقيقية كانت امرأة دنماركية نبيلة، عاشت من عام 1643 إلى 1718. ونشأت في إحدى مدن في وسط يولاند. تزوَّجت (أو بالأحرى زُوِّجَت) لابن الملك أولريك فريدريك جولدنلو، ثم تمّ فسخ الزواج بسبب خيانته الزوجية. بعد أن عادت ماريا إلى بيتها بفترة تزوَّجت من أحد نبلاء يولاند، باله ديهر. وأثناء زواجها الجديد توجهت شهوتها نحو سائس الخيول سورين سورنسن مولر، وغادرت معه بعد طلاقها من زواجها الجديد، وبعد تجوال طويل استقرا في فلاستر حيث توفرت لهما النقود عن طريق عملهما في الحانة التي امتلكاها إضافة خدمات النقل.

جعل ب ياكويسن من أحداث الرواية تدور في نفس الحقبة الزمنية التاريخية، مستخدماً سلسلة من الأسماء لأشخاص "حقيقيين"، إضافة إلى شخوص أخرى. عقدة الرواية تشترط تحديدات معينة بالنسبة للأشخاص والأحداث الثانوية في الرواية. فماريا غروبة في الرواية تعيش مع أبيها، إيريك غروبة، في مدينة تشيله. كان أبا سيئاً وازداد سوءاً من السنين. كان قاسياً مع الناس المحيطين به، مدمناً على الخمر ويعاشر إحدى المستخدمات في ضيعته ويعيش معها.

كانت ماريا تتوق للهروب بعيداً عن هذا المكان، وحين كانت في السادسة عشر من عمرها أُرسلت إلى كوبنهاغن لتسكن مع أقاربها الذين كان من واجبهم العثور على حفلات مناسبة لها.

Twitter: @alqareah

فـي عـام 1660 تزوجـت لأول مرة مـن أولريك فريدريك الأخ غير الشقيق لولي العهد. في عام 1664 تم تعيين أولريك فريدريك رئيسا للبلاط، بعدها سافرا إلى أوسلو ومعهما سافرت كارين فيول عشيقة أولريك في قلعة فريدريكسبورغ. كان الزواج مأزوماً حتى قبل بدء تلك الرحلة، لكن أولريك حاول مصالحة ماريا إلاّ أنه كان قد سقط من نظرها وفقد احترامها لشـخصه وللحب الذي كان بينهما. كان يعتقـد أن بإمـكان الحـب أن ينهـض كالعنقاء من بيـن الرماد لكنها فقدت كل رغبة به، وفي ليلة ظلماء استقلت سفينة أبحرت بها إلى الدنمارك حيث عادت، ومن دون أن تحمل معها شيئاً ذا قيمة، إلى بيت أبيها في تشيله.

لم يكن الحصول على الطلاق أمراً سهلاً بالنسبة لماريا وأبيها، لكن بعد بضع سنوات ورسائل توسل كثيرة للملك حصلا عليها، كذلـك علـى صداق مدفوع لماريا. أثنـاء فترة الانتظار تلك أقامت ماريا علاقة مع زوج أختها ستي هوي، إذ أرسلها والداها إلى كالو حيث التقت حبيبها هناك. كان ستي هوي شخصاً عميقاً، والحديث الأنيق بينه وبين ماريا موجود بين ثنايا الرواية. حين استلمت ماريا نقود صداقها من أولريك فريدريك سافرت إلى أوربا مع ستي هوي باعتبـاره دليـلاً لهـا. بعـد بضع سـنين نفدت ثروة ماريـا، إذ بذّرتها في اقتناء الأشـياء الغالية "كانت تقتني كل ما تشـتهيه نفسـها"، لكن بعد نفاد نقودها رجعت من جديد إلى بيت أبيها في تشيله، حيث زوّجها من جديد، لكن في هذه المرة إلى أحد المستشارين، يدعى باله ديهر، كان يدير معه منطقة تشيله والمناطق المحيطة بها. كتب المؤلف أن ماريا عاشـت حياة خاوية مع الزوج الذي كان يكبرها بسنين عديدة، كان بخيلاً، كذاباً وشخصاً انتهازياً تزوج بها من أجل

Twitter: @alqareah

النقود لا غير، في وقت كانت فيه ماريا لا تمتلك العديد من الفرص في حياتها، فقد كانت في الأربعين من العمر آنذاك وفقدت ألقها منذ زمن بعيد بعد أن طُلِّقت من رجل البلاط القوي ونفاد ثروتها.

أضحت ماريا مهمَلة، فاقدة الرغبة بالحياة بعد أن تلاشى خيالها المتوهج حول نفسها وقيمتها الشخصية، ولم يعد بإمكانها جمع الأجزاء المهشمة من روحها لتتفتح كوردة من جديد...

نقطة التحوّل في حياتها حدثت بعد علاقتها مع باله ديهر، وذلك حينما شبّ حريق عنيف في إسطبلات تشيله. هنا تقع عيناها على شخص كان يسحب الخيول فأوقظ شهوتها وجعلها تتسكع بدون هدف لتلتقي به، بسائس الخيول سورين لادكارل، حبها الجديد. كانت هي التي وقعت في غرامه، هي لا غير، كما كانت تقول حين تتحدث عن مشاعرها تجاهه، فقررت بعد ذلك أن ترتبط. لم تكن مستعدة لسماع الأقاويل عن مطارداتها لها، فأقاما علاقة انتهت بهروب الاثنين من الضيعة ليعيشا بعرق جبينهما.

حين توفي والدها عام 1896 ورثت ماريا ثروة قليلة، لكنها كانت كافية لكي يشتري بها الزوجان حانة وميناء للبواخر، وبدأب وكدح ادّخرا بعض النقود ليمكنهما توظيف بعض العاملين. وفي مرحلة ما قام سورين بعمل خاطئ فحكم عليه بسبب ذلك بالسجن ثلاث سنوات قضاها في بيرمرهولم ليعود بعدها محطماً إلى ماريا التي قامت بدفنه بعد سنة من عودته.

ما الذي يجعل من هذه الرواية عملاً خاصاً؟

تصوير ماريا غروبة في الرواية خرق كل التابوات في عصرها، إضافة إلى براعة ف ب ياكوبسن في الكتابة وغنى الصور وقوة التطور الداخلي للأحداث بصورة لم يفعلها كاتب من قبله أبداً.

Twitter: @alqareah

عوملت ماريا غروبة باعتبارها امرأة من الماضي، مثل شيء، غرض للبيع والشراء يقوم به الأقارب، العائلة والرجل المشتري، فقد كانوا هكـذا يفهمـون الواقع. الأب أرسـلها بعيداً ليتخلـص منها، الخالة فـي كوبنهاغـن أهملتهـا وتركتها تحت رحمـة انتظار لا جدوى له. وبعد زواجها الأول مباشرة سافر زوجها بعيداً عنها لمدة 14 شهراً ليتركها من جديد فريسة للوحدة، الضجر والأحلام الزائفة. لا أحد كان يسـأل مـاذا كانـت ماريا تريد، وكانت ماريـا الصبيّة بدورها لا تعرف ذلك أيضاً.

السيدة ماريا غروبة رواية تاريخية تنطوي على فهم سايكولوجي عميق لذهن المرأة. إنه عمل كبير يضرب في أعمق أعماق الروح موشى بلغة شاعرية حديثة.

Twitter: @alqareah

السيّدة ماريّا غروبة

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الهواء الذي يهجع تحت تيجان الزيزفون، هزهز نفسه متقدّماً فوق المرج البنّي والحقول الظمأى، الهواء الذي خبزته الشمس وغبّرته الطرقات أضحى الآن نظيفاً بأوراق الأشجار الكثيفة المتدلّية، منعشاً من أوراق الزيزفون الباردة، ورائحة زهور الزيزفون الصفراء جعلت منه نديّاً وشذياً. إنه يهجع الآن ويومض في هدوء ونشوة في حِمَى القنطرة الخضراء الفاتحة، مداعباً من الأوراق الناعمة المرتعشة وخفقات أجنحة الفراش الفاقعة البيضاء.

الشفاه البشريّة، التي تنفّست هذا الهواء، كانت مكتنزة ونضرة. النهد الرابي، كان فتيّاً وكاعباً. النهد كان غضّاً والقدم كانت غضّة، الخصر نحيل، القدّ رشيق، وكان ثمة قوّة ضامرة على امتداد القوام كلّه. لم يكن ثمّة ما يشير إلى الترف سوى الشعر الذهبيّ الباهت المتين الذي كان معقوداً وشبه محلول، لأنّ القبّعة المخملية الصغيرة الداكنة الزرقة كانت قد انزلقت عن رأسها وتدلّت من رقبتها، بخيطها المعقود تحت الذقن، على ظهرها مثل قلنسوة راهب صغيرة. غير ذلك لم يكن ما يوحي بالرهبانيّة في الرداء، ياقة واسعة ومقصوصة بشكل متساوٍ منسدلة إلى الأسفل فوق فستان أرجوانيّ أزرق من نسيج منزليّ ذي كمّين مقصوصين قصيرين وفضفاضين، يخفق خارجهما كيس منفوخ من الكتّان الناعم. وشاح قرمزيّ كان ينبسط على الصدر وشريط أحمر في الحذاء.

سارت ويداها خلف ظهرها، ورأسها منحن إلى الأمام.

Twitter: @alqareah

بخطـوات أنيقـة، لعـوب مضت بطيئة عبر الممر، لكن ليس بشـكل مستقيم، بل بشكل متعرّج، تكاد أحياناً ترتطم بأحد الأشجار على أحـد جوانبهـا ثـم تخرج من بين أشـجار الجانب الآخر. بين الفينة والفينة كانت تتوقف، تنفض شـعرها عن خديها وتتطلع عالياً نحو الضيـاء. التوهّـج الخافـت منح وجهها الطفوليّ الأبيض بريقاً ذهبياً خافتاً جعل من الظلال الزرق تحت العينين أقل وضوحاً. الشفتان الحمـراوان أضحتـا قرمزيتين والعينان الواسـعتان الزرقاوين صارتا سـوداوين تقريبـاً. جميلـة كانـت هـي: جبين سـويّ، أنـف مقوّس برقّة، دقيقة الشـفة السـفلى، خدّان مدوّران قويان وأذنان صغيرتان وحاجبان مرسومان بدقّة... كانت تسير وتبتسم، خفيفة وبلا تفكير، كانت لا تفكر بشـيء وتبتسـم بانسـجام مع كل شيء حولها. بلغت نهاية المجاز، توقفت وجعلت نفسها تدور على كعبها، نصف دورة لليمين ونصف إلى اليسار ويداها ما زالتا معقودتان خلف ظهرها، ورأسها مستقيم، رفعت نظرتها إلى فوق ثم شرعت تترنم وتتوقف بالتناغم مع دورانها.

ثمـة بلاطتـان مرصوفتـان كانتا بمثابة السـلّم الـذي يهبط نحو الحديقة، نحو الحديقة وضوء الشـمس الأبيض السـاطع. السـماء الصافيـة الزرقـاء كانـت تقبع هنـاك، والظلال الصغيـرة كانت تلوذ بأقدام سياج الشجيرات المقصوصة. الشعاع كان يلسع العيون، حتى السـياج كان يعكـس الضوء من أوراقـه المصقولة في لمعان أبيض حادّ. كانت شـجيرات الكهرمان تضوع برائحتها من أكاليل الزهور البيض دخولاً وخروجاً، ذهاباً وإياباً حول شـجيرات البلسـم البرّي الظمـأى، عنـب الثعلـب، زهرة المنثور والقرنفل الذي كان ينتصب ويدسّ رأسه نحو بعضه مثل قطيع خراف في حقل مفتوح. البازلاء

Twitter: @alqareah

والفاصوليا القريبة من صفوف الخزامى كانت على وشك السقوط عن عرائشها من شدة الحرّ، زهور "سيدات الصباح" تخلّت عن مقاومتها وبقيت منتصبة تحدّق في الشمس وجهاً لوجه، فيما نثر الخشخاش أوراق زهوره الحمر وبقي منتصباً على ساقه الجرداء.

قفزت الصبية في ممر الزيزفون أسفل الدرجات، هرولت عبر الحديقة الساخنة من حرارة الشمس، منحنية الرأس مثلما يهرول المرء عبر فناء في طقس ممطر. اندفعت نحو مثلث من أشجار الصنوبر القاتمة، انسلت خلفها وولجت في تعريشة كبيرة، كانت خرائب منذ عهد بيلور، المالك القديم. دائرة واسعة من أشجار الدردار التفت على بعضها من الأعلى بقدر ما تصل إليه الأغصان، كما أن الفتحة المستديرة في الوسط أغلقتها الأغصان الطرية. الورود المتسلقة وشجيرات صريمة الجدي نمت وريقاتها بعنف حتى أنها صنعت حائطاً كثيفاً منها، لكن في أحد جوانبها كانت ثمة ثغرة، وشجيرة حشيشة الدينار التي زرعت عوضاً فيما بعد أرعبتها أشجار الدردار ولم تستطع سدّ ذلك الفراغ.

ثمة حصانا بحر أبيضان يقبعان عند المدخل، داخل التعريشة تنتصب مصطبة خشبيّة طويل ومنضدة، كنت صفيحة المنضدة من حجر كان ذات مرة كبيراً وبيضويًّا، لكنّ أغلبه الآن صار يقبع على الأرض في شظايا ثلاث، شظية صغيرة منها فقط كانت تستند بتداع على إحدى زوايا هيكل الطاولة. عند تلك الزاوية جلست الصبية، سحبت قدميها تحتها فوق المصطبة ومالت إلى الخلف عاقدة يديها على هيأة صليب. أغلقت عينيها وجلست هادئة تماماً، برز تغضنان صغيران على الجبهة، بين آونة وأخرى كانت تحرّك حاجبيها مبتسمة قليلاً.

Twitter: @alqareah

"في الصالة ذات السجاجيد القرمزية وفجوة السرير المذهّبة قبعت جريسلديس عند أقدام الحاكم العسكريّ، لكنه رفسها بعيداً عنه. كان قد انتزعها توّاً من السرير الدافئ، وها هو الآن يفتح الباب المقوّس الضيّق فتدفق الهواء البارد على جريسلديس المسكينة التي كانت تضطجع على الأرضية وتبكي، ولم يكن هناك من شيء بين نفحات الليل الباردة وجسدها الأبيض الدافئ غير دثار خفيف، خفيف من الكتّان. لكنه طردها خارجاً وأغلق الباب من دونها، لكنها دفعت بكتفيها العاريين على الباب البارد الأملس وهي تنشج وتصغي إليه وهو يسير بنعومة في الداخل فوق سجاجيد الأرضية، وعبر ثقب المفتاح كان الضوء ينبثق من الشموع المعطّرة ويستقرّ مثل شمس صغيرة مدوّرة فوق صدرها العاري. ثمّ انسلّت بعيداً ومضت هابطة من السلالم المعتمة، وكان ثمة سكون مطبق هناك ولم تكن تسمع شيئاً غير صوت وقع خطوات أقدامها العارية على درجات السلالم المتجمّدة. بعد ذلك وصلت إلى الخارج. الثلج... كلاّ، إنها تمطر، مطر غزير، والماء الثقيل البارد كان ينهمر على كتفيها، دثارها التصق بجسدها، والماء انساب على ساقيها العاريين، وكانت تدعس بقدميها الرقيقتين الوحل الرطب البارد الذي كان ينزلق ناعماً تحت قدميها. والريح... الشجيرات كانت تخدشها وتمزق ثوبها، كلا! لم يكن أيّ ثوب عليها... لقد تمزقت تنّورتي البنّية! - لعلّ الجوز أينع من الآن في بستان فاستروب، كلّ الجوز الذي كان في سوق فيبورغ... الله أعلم فيما إذا كانت أسنان آنا قد سكنت آلامها... كلاّ، يا برونهيلد! الجواد الهائج يثب بعيداً... بورنهيلد وجريميلد - الملكة جريميلد تلوّح للرجال، تستدير ثم تمضي بعيداً. يسحبون الملكة برونهيلد إلى أمام، وثمة فلاح قصير

Twitter: @alqareah

أسمر ذو ذراعين خشنتين طويلتين، شبيه ببيرتل الذي يقف عند نقطة المكوس، يمسك بحزامها ويقطعه نصفين، ثم يرفع رداءها وتنورتها الداخلية وبكفيه السمراوين يدعك الحلقات الذهبية على ذراعيها الأبيضين البضّين، وثمة فلاح آخر، شبه عار، برونزيّ وفظّ طوّق بذراعه المشعرة خصرها، وبقدميه المفلطحتين الخرقاوين ركل صندليها بعيداً عنها، فيما لفّ بيرتل خصلات شعرها الطويلة السوداء حول يده وسحبها إليه، فتبعته بجسد منحن إلى أمام، ثم وضع الكبير راحة يده المتعرّقة على ظهرها العاري ودفع بها إلى أمام نحو الفحل الأسمر الصاهل، ثم ألقوا بها في الشارع الرمادي المغبر وعقدوا ذيلها الطويل حول كاحليها...".

عادت بعد ذلك الغضون إلى جبينها من جديد ومكثت طويلاً هناك. هزّت برأسها وبدت متكدرة أكثر، فتحت في النهاية عينيها، نهضت من مكانها شبه مستيقظة وتطلعت فيما حولها بتعب وتبرّم.

كان البعوض يتراقص في الفجوة التي في فجوة العريشة، ومن الحديقة كانت تضوع نفحات من شذا النعناع والترنجان وفي بعض الأحيان ممزوجاً مع نفحات الشِّبت أو اليانسون. عنكبوت صغير دائخ، أصفر مرق مدغدغاً فوق يدها وجعلها تقفز عن المصطبة. مضت باتجاه المدخل ومدت يدها نحو وردة كانت مستقرّة بين الأوراق، لكنها لم تستطع الوصول إليها. بعدها مضت إلى الخارج وقطفت حزمة من الورود، فيما كانت لهفتها تزداد، حتى ملأت حضنها بالورد. حملتها معها إلى داخل التعريشة وجلست عند الطاولة. واحدة بعد الأخرى تناولتهن من حضنها ووضعتهن فوق لوحها الحجريّ قرب بعضهن حتى أضحى الحجر مغطى بدثار أحمر شاحب فوّاح.

Twitter: @alqareah

بعد أن تناولت الوردة الأخيرة ملّست ثنايا ثوبها ونكثت عنه ورق الورد الساقط والأوراق الخضر التي كانت متشبثة في نسيج الفستان ثم أرخت يديها في حضنها وظلت تتطلع إلى جمهرة الورد.

احمرار الورد الذي كان يتموج في الضوء والظل، من الأبيض المحمرّ إلى الأحمر الشاحب، من الورد النضر التي يكاد بثقله ينوء إلى الخزامى الخفيف الذي يروح ويجيء مع نسيم الهواء، كل بتلة ورد كانت مستديرة مثل قنطرة صغيرة، ناعمة في الظلال، لكنها تحت الضوء كانت تتلامع بآلاف الومضات والانعكاسات التي لا تكاد ترها العين، بكل الدماء الوردية التي تتدفق في عروقها وتنتشر في الجلد... وذلك الأريج الثقيل، اللطيف، الذي يتصاعد مثل بخار من الرحيق الأحمر الذي يغلي في قدح الورد.

سحبت فجأة ردنها إلى الأعلى ودست ذراعيها العاريين في برودة الورد الناعمة، الرطبة. قلبت الورد على بعضه إلى أن هوت التويجات مرفرفة على الأرض، بعدها قفزت وبحركة واحدة كنست كل شيء عن الطاولة بعيداً، ثم سارت خارجة إلى الحديقة وهي تسحب كمّيها إلى الأسفل. بخدين متوردين وخطوات سريعة سارت عبر المجاز للخروج، ثم مضت بطيئاً مواصلة اجتياز ممر الحديقة إلى نهايته باتجاه الشارع العام. عربة محمّلة بالقشّ كانت قد سارت لتوها نحو الفناء لإفراغ حمولتها من القش لكنها انقلبت، عربات عديدة أخرى توقفت وراءها وسدّت الطريق. كان الناظر يجلد السائس بعصا قهوائية صقيلة تتوامض تحت الشمس.

صوت الضربات ترك أثراً مفزعاً على الصبية، أغلقت أذنيها بأصابعها وسارت مسرعة باتجاه الفناء. باب السرداب المفضي إلى

Twitter: @alqareah

قبو التخمير كان مفتوحاً، انسلت إلى الداخل وأوصدت من خلفها الباب.

كانت تلك الصبية ذات الأربعة عشر ربيعاً، ماريا غروبة، ابنة السيد إيريك غروبة ملاّك عزبة تشيله.

Twitter: @alqareah

ضوء سديم الشفق الأزرق يستريح فوق تشيله. الندى تساقط واضعاً نهاية لنقل القشّ. فتيات الفناء في الإسطبل يحلبن، فيما كان الرجال منشغلين بالعربات وعدة الأفراس في الحظيرة. الفلاحون الأجراء واقفون جماعات خارج البوابة وينتظرون مناداتهم للعشاء.

في النافذة المفتوحة كان يقف إيريك غروبة وهو يحدق خارجاً إلى ساحة الفناء، بطيئة وواحد إثر واحد خرجت الأحصنة من الإسطبل حرّة من أرسنتها وأسرجتها ومضت إلى حوض الشرب. وسط الفناء كان صبي بقبعة حمراء يقف عند مربط الخيول محاولاً تنصيب شوكات جديدة في مذراته، وفي إحدى الزوايا ثمة كلبان سلوقيان يلعبان لعبة الإمساك حول الحصان الخشبي وحجر الشحذ الكبير.

مع تأخر الوقت كان الرجال يخرجون من باب الإسطبل كلٍ بضع دقائق، يتطلعون فيما حولهم ثم يعودون أدراجهم وهم يصفرون أو يترنمون، ثمة خادمة تحمل سطلاً مترعاً بالحليب سارت بخطوات قصيرة سريعة عبر الفناء، والفلاحون بدأوا ينسحبون إلى داخل البوابة ليستعجلوا دقات جرس العشاء. في داخل المطبخ أخذت قعقعة الصحون والأطباق بالتصاعد، بعدها جذب أحدهم مطرقة الجرس بضع جذبات عنيفة مطلقاً دفعتين من نغمات صدئة سرعان ما ماتت بين قعقعة القباقيب الخشبية

Twitter: @alqareah

والأبواب التي كانت تصرّ لوالبها.

أطبق إيريك غروبة النافذة وجلس متأملاً. كان يجلس في ردهة الشتاء التي كانوا يستخدمونها صيفاً وشتاءاً كصالة يومية ولتناول الطعام. كانت تلك الصالة التي كانوا تقريباً لا يستعملون صالة غيرها، غرفة كبيرة ذات نافذتين ومشيدة بخشب البلوط المعتم المرتفع، الجدران كانت مكسوة بقرميد هولندي مصقول مزخرفة حديثاً بزهور زرق على خلفية بيضاء. الموقد كان مشيداً بطوب مفخور وصوان الثياب كان موضوعاً أمام فتحته لكي يمكنهم التقاط معاطفهم منه قبل خروجهم من الباب. ثمة منضدة من خشب السنديان الصقيل ذات مصراعين شبة مدورين يكادان يتدليان على الأرض، بعض الكراسي ذات مساند مرتفعة ومقعدة مكسوة بجلد لمّاع وخزانة صغيرة مطلية بالأخضر معلقة عالياً على الحائط، ولم تكن هناك أشياء غيرها موجودة.

فيما إيريك غروبة يجلس في العتمة قدمت مدبرة منزله، آنا ينسداتر، إلى الداخل بشمعة في إحدى يديها وقدح من الحليب الساخن في اليد الأخرى. وضعت القدح أمامه ثم جلست عن الطاولة والشمعة أمامها، دون أن تتخلى عنها، بل بقيت جالسة تديرها وتديرها بيدها الحمراء الكبيرة التي كانت تتوامض بالعديد من الخواتم والأحجار الكريمة الكبيرة.

"يا له من يوم!"، هتفت حالما جلست.

"ما الأمر الآن؟"، سألها غيريك غروبة وهو يتطلع إليها.

"حسناً، يتوجب أن يكون المرء مرهقاً بعد أن تخفت الضوضاء".

"نعم، أوقات مشحونة! على الناس العمل بكد أثناء الصيف

Twitter: @alqareah

والاسترخاء في الشتاء".

"نعم، هكذا يقال! هنالك سبب لكل شيء، لكن كما يقول المثل: حين تكون العجلات في الخندق لا تسير عربة الملك، خادمات المنزل لسن سوى نسوة قذرات وثرثارات عشاق وأحاديث شوارع، إذا قمن بالقليل من العمل فسيكون أخرقاً بلا ريب... وولبر مريض وستينا داعرة، إنهم يثيرون الضوضاء إلى حين قدوم الحلوى، لكن لا ينبغي أن يحصلوا على شيء، أنا بحاجة لمساعدة ماري، لو كان بإمكانك الحديث إليها، لكنك لا تريد أن تجعلها تلمس أي شيء".

"أووه، أنت تتحدثين بسرعة تجعل حتى من ملك الدنمارك يفقد أنفاسه أيضاً. لا تلوميني، لومي نفسك. لو صبرت على ماريا الشتاء الماضي وعلمتيها على رسلك الأمور الصحيحة للأشياء لكنتِ الآن تنعمين بمساعدتها، لكن لا صبر لديك، كنت فظة ومشاكسة فتذمرت منك، أنتما على وشك الانفصال عن بعضكما أحياء، وساكون شاكراً لو وضعت حداً لهذا".

"إذن هكذا! أنت تدافع عن ماري فقط، أنتما متفقان على ذلك، لكنك إذا وقفت إلى جانب نفسك فسأقف أنا إلى جانب نفسي، سواء رضيتم بذلك أم لا، عليك بأن تعرف أن ماري تمتلك من الإدراك أكثر مما هي تبدو عليه لكن الخطأ يكمن في كون هذه البنت خبيثة، نعم، ستقول كلاّ! لكنها خبيثة، لا يمكنها أبداً أن تدع الصغيرة آنا تمضي بسلام أبداً! إنها تجثم عليها تؤذيها وتزعجها بكلام ناب طوال اليوم، تمنيت لو أن هذه الصبية السيئة لو لم تولد أبداً لأنها تمزق قلبي. فليرحمنا الله! أنت لم تعد ذلك الأب للطفلتين، لكنني متأكدة أن آثام الآباء

Twitter: @alqareah

ستتابع الأبناء إلى ثالث أو رابع جيل، وآثام الأمهات كذلك، وأن الصغيرة آنا ليست سوى ابنة عاهرة، بلى، أنا أقول لك ذلك مباشرة، إنها ابنة عاهرة، ابنة عاهرة أمام الله والعالمين، لكن أنت! أبوها! ينبغي عليك أن تخجل، نعم، أقول لك ذلك حتى وأن وضعت يديك عليّ بسبب ذلك مثلما فعلت في عيد القديس ميخائيل قبل سنتين، يتوجب عليك أن تخجل لأنك تدع طفلتك تشعر بأنها قد ولدت من خطيئة! وأنت تجعلها تشعر بذلك، أنت وماري تجعلانها تشعر بالأمر، نعم، حتى وإن ضربتني ستجعلها تشعر بذلك...".

وثب إيريك غروبة من مكانه وخبط بعنف على الأرضية بقدمه.

"إلى الجحيم بكل هذا! أقول لك، هل أنت مجنونة يا امرأة؟ إنك سكرانة بلا ريب، هذا ما أنت عليه الآن. اذهبي واضطجعي في سريرك ونامي إلى أن تفيقين من سكرك وغضبك! أنت تستحقين أن أصكك تحت أذنيك، أيتها المرأة المعتوهة كلاّ، ولا كلمة زائدة! ماريا ستمضي بعيداً، سترحل من هنا صباح الغد، أريد أن أشعر بالسلام في زمن السلام".

انتحبت آنا بصوت عال.

"آه يا ربي، يا ربي! أن تحدث مثل هذه الأشياء باستمرار، يا لعار العلم! نامي حتى تفيقين من سكرك! هل حدث طوال الفترة التي عرفنا فيها بعضنا وكل الوقت الذي سبقه، أن كنت أسير في حجرة المطبخ بجبهة ثملة؟ هل سمعتني أهذر يوماً رغماً عني؟ أرني البقعة التي كنت منطرحة فيها من السكر؟ هل هذا هو الشكر الذي يناله المرء! أنام إلى أن أفيق من سكري! نعم، أتمنى من الله

Twitter: @alqareah

أن يسقطني ميتة أمامك لأنك جلبت لي العار...".

شرعت الكلاب بالنباح خارجاً في الفناء، وسمعت سنابك خيول تحت النوافذ.

جففت آنا عينيها بسرعة، وفتح إيريك غروبة النافذة ليسأل من يكون القادم.

"ساع خيّال من فوفسنج"، أجاب أحد سوّاس المنزل.

"خذ حصانه إذن ودعه يدخل إلى المنزل"، ثم أغلقت النافذة.

عدلت آنا من جلستها على الكرسي وظللت عينيها بيدها لتخفي احمرارهما من البكاء.

بعدها قدم الساعي إلى الداخل وقدم التحيات والصداقة من كريستيان سكيل رئيس الأبرشية في مقاطعتي فوسفنج وأودن الذي بعث إليه ليحيطه علماً بأنه استقبل رسولاً ملكياً يبلغه بأن الحرب قد أعلنت عند أول يونيو، ولهذا السبب فمن الضروري عليه لأسباب عديدة أن يشد الرحال إلى أغوس وبعد ذلك إن أمكن إلى كوبنهاغن، ولذلك فإنه يسأل إن كان بإمكان إيريك غروبة أن يرافقه بقدر ما يسمح به الطريق، حيث سيمكنهما على الأقل إنهاء بعض الشكاوي التي قدموها ضد مواطنين من آغوس، وبالنسبة إلى كوبنهاغن فإن رئيس الأبرشية يعرف بأن إيريك غروبة لديه العديد من الأسباب للذهاب إلى هناك، وفي كل الأحوال فإن كريستيان سكيل سيصل إلى تشيله في غضون أربع ساعات بعد ظهيرة اليوم التالي.

ردّ إيريك غروبة بعدها أنه سيكون مستعداً للسفر.

بهذا البلاغ ركب الرسول حصانه مغادراً المنزل.

بعدها شرعت آنا وإيريك بالحديث طويلاً عما يتوجب فعله

Twitter: @alqareah

في غيابه، كما تمّ البت أيضاً بأن تسافر ماريا معه إلى كوبنهاغن وتمكث عند عمتها أستريد سنة أو سنتين.

الفراق الوشيك جعل كلا منهما هادئاً، لكن الخصام القديم كان على وشك الاضطرام من جديد حينما شرعا يتحدثان عن جلي وفساتين والدتها الراحلة التي يتوجب أن تأخذها ماريا معها، لكن القضية تم التفاهم عليها في النهاية، ثم مضت آنا للرقاد مبكراً فلربما سيكون الغد يوماً طويلاً أيضاً.

بعد ذلك بقليل نبحث الكلاب معلنة قدوم غريب جديد.

هذه المرة لم يكن سوى قسيس أبرشية تشيله وفنجه، السيد ينس ينسن بالودان.

بجملة "مساء الخير على من في الصالة" خطا إلى الداخل.

كان واسع المنكبين، رجلاً متين العظام ذا أطراف طويلة ورأس منحن، كما كان واسع المنكبين كذلك، كثيف الشعر مثل عش الغراب، أشيباً وأشعث، لكن وجهه كان ذا لون أحمر ناصعاً ومتسق القسمات بما لا يتناسب وملامحه الخشنة، الصارمة وحاجبيه الكثيفين.

رجاه إيريك غروبة أن يجلس وسأله عن مجريات حصاد القش عنده. تناول الحديث أيضاً قليلاً رئيس عمال المزرعة في تلك السنة الذي توفي متحسراً على موسم حصاد الشعير السيئ في العام الماضي.

جلس القسّ وزاغ بنظرته إلى الإبريق وقال بعدها: "السمعة الطيبة مرتبطة بالسيطرة على العادات! تحرص دائماً على الشراب الطبيعي. لا مراء في أنها صحية! الحليب الطازج هبة مباركة من

Twitter: @alqareah

السماء. إنها كذلك، مفيدة للمعدة السيئة وللصدر المتوجع".

"بلى يا رجل! عطايا الرب كلها خيرة سواء كانت محلوبة أو معصورة. عليك الآن تذوق شيء من برميل الجعة الأصلي الذي جلب للمنزل من فيبورغ، إنها طيبة وثم ألمانية رغم أن من الصعب علي رؤية أن الجمارك طبعت بختمها عليها".

قدحان من الجعة وإبريق كبير من الأبنوس المزخرف بحلقات فضية وضعت أمامهما.

بعدها شربا متبادلين الأنخاب.

"هايدنكمبر! هايدنكمبر أصلية وفريدة!"، ختف القسيس بصوت مرتعش من الحماس والتأثر، وحين أسند بغبطة ظهره على المقعد كان الدمع يوشك أن يتطافر من عينيه.

"حضرتك خبير يا سيد ينس!"، قال إيريك غروبة مداهناً.

"آه، أيّ خبير! نحن أبناء البارحة ولا نكاد نعرف شيئاً"، تمتم القسيس مقطوع الأنفاس، "وإلاّ فأنا أفكّر"، واصل كلامه بصوت مرتفع، "فيما إذا كان صحيحاً ما أخبرت به عن مصنع جعة هايدنكمبر. كان أحد الأسطوات قد أخبرني بذلك هناك ذات مرة في هانوفر، في الوقت الذي كنت فيها مسافراً مع الشاب يورن. أنظر! قال لي، إنهم دائماً يشرعون بتخمير الجعة ليلة الجمعة، لكن قبل أن يمكن لأحد لمس أي شيء بيده ينبغي عليه أن يمضي نحو أكبر العمال سناً ويضع يده فوق الميزان الكبير ويقسم بالنار والدم والماء على أنه لا يكتم أية ضغينة أو أفكاراً شريرة لأن مثل هذه الأشياء تلحق الضرر بالجعة. كما أخبرني الرجل أيضاً أنهم عند صباحات الأحاد، حينما تدق نواقيس الكنيسة، يفتحون جميع الأبواب والنوافذ والكوى على

Twitter: @alqareah

مصراعيها ليتركوا الرنين يتسرب إلى البيرة، لكن الأهمّ من كل ذلك يحدث حينما يجهزون الجعة للتخمير، حينما يأتي الأسطة بنفسه مع صندوق فاخر يلتقط منه خواتم ذهب ثقيلة وسلاسل وأحجاراً كريمة تحمل علامات خاصة ويغمسها جميعاً في الجعة، وحينها يفكر الإنسان أن مثل هذه الكنوز النبيلة التي تمنح للمشروب ينبغي أن تضفي عليه بعضاً من قدراتها السرية التي منحتها لها الطبيعة".

"نعم، هذا شيء ليس من المستحسن أن يعرف عنه شيئاً"، صرّح إيريك غروبة، "أنا الآن أكثر إيماناً بحشائش برونزويك وبقية الأعشاب التي يمزجونها".

"بلى!" قال القس بجدية هازاً برأسه، "من الخطأ قول ذلك، هنالك الكثير مما هو مخفي عنا في مملكة الطبيعة. هذا أمر مؤكد ولا ريب فيه. كل الأشياء، الميتة منها والحية، لها معجزتها الخاصة في ذاتها. ما نحتاجه هو الصبر في البحث وفتح العيون لكي نجد. آه، في الأيام الغابرة، حينما لم يكن قد مضى الكثيرة من الوقت على رفع الله يده عن الأرض، كان كل شيء ما زال مكتنهاً بالقوة الإلهية، حتى أنها كان ينبعث منها الشفاء وكل ما هو خيّر، أبديّ ومؤقت، لكن مملكة الأرض لم تعد جديدة الآن ولا رائعة، إنها منجّسة بآثام العديد من الأجيال، الآن فقط في أوقات خاصة تعلن هذه القوى عن ذاتها، في أماكن معينة وفصول معينة، حينما ترى علامات غريبة في السماء، كما كنت أقول للحدّاد حينما تحدثنا عن ضوء اللهيب المضطرم الذي كان مرئياً حول نصف السماء منذ عدة ليالي مضت... على فكرة، مرق بنا رسول خيّال تلك المرة، كان قادماً إلى هنا كما أعتقد؟".

Twitter: @alqareah

"نعم، لقد كان كذلك يا سيّد ينس".

"عسى ألا يكون ساعياً سوى بالخير؟".

"لقد أبلغنا بأن الحرب قد أعلنت الآن".

"يا يسوع المسيح! كلا! بلى، بلى، ينبغي أن يحدث ذلك ذات مرة".

"نعم، لكنهم انتظروا طويلاً، كان لا بد لهم من الانتظار إلى أن ينتهي الناس من جمع حصادهم".

"إنهم أهالي سكاننج الذين عجلوا بذلك، لا ريب في هذا، إنهم ما زالوا يستشعرون الوجع الفظّ للحرب الأخيرة ويبحثون عن علاجه في هذه".

"أوه، إنها ليست مسألة أهالي سكاننج وحدهم، الشيلانديون كانوا دائماً تواقين الحرب، أإنهم يعرفون بالتأكيد أنها ستمرّ بهم كما هو الحال دائماً. حسناً، إنه لزمن طيب بالنسبة للمتحذلقين والمجانين، حينما يصاب أعضاء مجلس الدولة جميعهم بالجنون...".

"يقولون أن اللورد الملكي الكبير لم تكن لديه الرغبة في ذلك".

"بلى، فليصدق الشيطان ذلك! ربما لم يكن ذلك لكن هنالك القليل لإلقاء مواعظ بهدوء في تلة النمل. حسناً، الحرب على الأبواب، والآن كل رجل لنفسه. ولدينا الكثير مما يشغلنا في جميع الأحوال".

تغيرت وجهة الحديث بعد ذلك إلى الرحلة المقبلة في الصباح، ثم بعدها إلى الشوارع السيئة، ثم عادت إلى تشيله،

Twitter: @alqareah

إلى الأبقار السمينة وإسطبل العلف، ثم رجعت ثانية لتدور حول السفرة، ولم يهملا الإبريق أثناء ذلك، البيرة صعدت إلى الرأس بقوة، وإيريك غروبة الذي كان يتحدث الآن عن رحلته البحرية إلى سيلان والهند الشرقية على متن "اللؤلؤة" كان يعاني من صعوبة مواصلة الحديث بين قهقهاته، في كل مرة تنبثق طرفة من ذهنه".

أصبح القسيس مع مرور الوقت أكثر جدية، كان يقبع كليلاً في كرسيه، بينما كان بين آونة وأخرى كان يستدير برأسه ويحدق بشراسة حوله، ثم يحرك شفتيه كما لو أنه كان يتحدث، مومئاً بإحدى يديه، مهتاجاً أكثر فأكثر إلى أن يخبط أخيراً بجمع كفة على الطاولة ثم يغوص ثانية في مكانه بنظرة مذعورة نحو إيريك غروبة. وأخيراً، بعد أن تمالك الرفيق نفسه تحولت الحديث إلى قصة أحد صبيان المطبخ الأغبياء مما جهل القس ينهض من مكانه ويشرع بالحديث في صوت مجوّف وقور.

"حقاً"، قال القس، "حقاً! سأشهد على ذلك بملء فمي، بفمي شخصياً، أنّك مستاء وفي حالة استياء، من الأفضل لك أن تقذف في البحر، حقاً! مربوطاً بحجر رحى وبرميلين من الجعة، برميلان من الجعة أنا مدين لك بهما، أشهد بصوت عال وبملء فمي، برميلان طافحان بالجعة في جرابي الجديد الخاص، لأنه ليس بجرابي، لا مملكة بلا نهاية، إنه جرابك القديم، أما جرابي الجديد فأنه في حوزتك! لقد كانت جعة فاسدة حقاً! أنظر إلى بشاعة الخراب والجراب يعود لي، وسأسدد لك دينك، فالقصاص قصاصي، أقول لك. ألا ترتجف عظامك العتيقة الآن أيها القواد العجوز! ينبغي عليك الحياة كمسيحي لكنك تعيش مع آنا ينسداتر

Twitter: @alqareah

وتدفعها للاحتيال على قس مسيحي. أنت.. أنت قوّاد مسيحي، نعم".

كان إيريك غروبة في بداية حديث القس يبتسم ملء وجهه، وبمودة مدّ يده باتجاهه فوق الطاولة، فيما بعد غرز مرفقه وكأنه كان يلكز مستمعاً لا مرئياً إلى جانبه لكي يمكنه أن ينتبه إلى مدى النشوة التي بلغها القس في سكرته، لكنه بدأ يعي أخيراً الكلام الذي كان يقال نوعاً ما لأن وجهه أصبح أبيض مثل الطباشير فقبض على الإبريق وقذف به باتجاه القسيس الذي هوى إلى الوراء في كرسيه الذي انزلق على أرضية الغرفة. ولم يكن سقوطه إلاّ بسبب الرعب، لأن الإبريق لم يصل إليه، بل ظلّ ملقى على حافة الطاولة فيما غمر محتواه الطاولة كلها متدفقاً في سيول صغيرة فوق الأرضية الأرضية وعلى القسيس.

الشمعة احترقت وذابت في شمعدانها وظلّ لهبها يطفطف، فساعة تضاء الغرفة وساعة تسبح في الظلام، حتى أنّ الفجر الأزرق كان يبصبص عبر النافذة.

القس ما زال يتحدث، حيناً بصوت عميق ومنذر، وحيناً آخر بنبرة واهنة تكاد تكون أنيناً.

أنت غاطس بالذهب والأرجوان وأنا هنا مضطجع تلحس جراحي الكلاب، وماذا ألقيت في حضن إبراهيم المسيحيّ؟ أية تضحية قدمت؟ لم تضع حتى قرشاً فضياً واحداً في حضن إبراهيم المسيحيّ. وأنت الآن متفجّع لكن لا أحد سوف يغطس إصبعه في الماء من أجلك"، ثم خبط بيده على الجعة المسفوحة، "لكنني أغسل يديّ منك، يديّ كلاهما، لقد أنذرتك. إيه، ستمضي، نعم، ستمضي في الخيش والرماد في أجربة شعيري الجديدة...".

Twitter: @alqareah

ظـلّ يتمتـم لوهلـة ثم غـطّ بعدها في النوم، فيمـا كان إيريك غروبة يحاول أن يثأر لنفسه، أطبق يده بقوة على ذراع كرسيه، مد جسـده إلى أبعد مدى ثم رفس سـاق الطاولة على أمل أن تكون ساق القسيس.

بعدهـا لـم يتحـرك شـيء هنا، ولم يعد يسـمع سـوى شـخير السـيدين العجوزيـن والتقطيـر الرتيـب المنسـاب مـن قـدح الجعة المسفوح على الطاولة.

Twitter: @alqareah

يقع قصر أرملة الراحل هانس أولريك جولدنلو، السيدة ريجتز غروبة، في أحد أركان جادة أوسترجاذة وبيلستريذة.

في ذلك الوقت كانت أوسترجاذة إلى حد ما مكان سكن أرستوقراطي، هنا كان يعيش أعضاء عوائل ترولة، سيهستيذ، بويسننرانتز وكراو. كان يواكيم جيرسجوف يقطن جنباً إلى جنب مع السيدة ريجتز، وفي قصر كارل فان ماندرن الأحمر الجديد يقطن عادة اثنان أو أكثر من الوزراء الأجانب. ومع أن جهة واحدة فقط من الجادة كان فقط مأهولة بمثل هؤلاء الناس الراقين فقد كانت المنازل على جهة نيكولاي أخفض مرتبة حيث كان يقيم الحرفيون، البقالون، والبحارة، كما أن بضع حانات كانت موجودة هنالك أيضاً.

كان الوقت ظهيرة يوم الأحد في بداية سبتمبر.

عند كوة النافذة في قصر السيدة ريجتز كانت ماريا غروبة تقف وتتطلع خارجاً: ما من عربة هناك، ليس ثمة نشاط، ليس سوى خطوات وقورة تسمع وبضع نداءات متفرقة لبائع المحار تتعالى بين الفينة والفينة. شعاع الشمس يختلج فوق السقوف وبلاط الرصيف، وجميع الظلال كانت حادة وشديدة وتقريباً مستطيلة. المسافة كانت تسبح غي غشاوة خفيفة من الحر ضاربة إلى الزرقة.

"انتبهي...أوف!" ارتفع صوت امرأة من خلفها، محاكاة

Twitter: @alqareah

ناجحة لأحد أكثر الأوامر العسكرية هتافاً.

استدارت ماريا إلى الوراء.

كانت تلك التي هتفت هي لوسيا، خادمة الحجرة. كانت جالسة طوال الوقت هادئة عند الطاولة وهي تتفحص قدميها اللطيفتي التكوين بنظرة ناقدة. بعد أن ضجرت من طول انشغالها صاحت، وهي الآن جلست تضحك بكل ما أوتيت من قوة وتؤرجه ساقيها جيئة وذهاباً.

هزت ماريا كتفيها وأرادت أن تستدير إلى النافذة من جديد بابتسامة متبرمة لكن لوسيا وثبت من الطاولة وأمسكت بها من خصرها وأجبرتها على القعود على مقعد القشّ الصغير الذي كان يقبع هناك.

"اسمعي يا آنسة!"، قالت لها، "هل تعرفين شيئاً؟".

"حسناً!".

"لقد نسيتِ كتابة رسالتك، والأجانب سيكونون هنا عند الواحدة والنصف، ولذلك فلديك الآن بالكاد أربع ساعات. هل تعرفين ماذا سيتناولون عند العشاء؟ حساء أصفر، سمك مفلطح أو سمك شبيه بالعرض، دجاج مقلي، تورتة محشوة مع حلوى برقوق مطبوخ. شيء رائع، إنما ليس دسماً!هل سيأتي حبيب الآنسة أيضاً؟".

"حديث هراء!"، انفجرت ماريا مغتاظة.

"فليحمنا الربّ! هذا ليس إعلان زواج ولا خطوبة لأنني قلت ذلك فقط. لا أستطيع أن أفهم، يا آنسة، لِم لَم تعودي تعتمين بابن عنك! إنه أبهى وأروع رجل رأيته حتى الآن. القدمان التي يمتلكهما! والدم الملكيّ الذي يسري فيه، يمكن للمرء رؤية ذلك

Twitter: @alqareah

في يديه وحدهما، يالهما من رقيقتين! آه، كأنهما سبيكتان، وأظفاره التي ليست أكبر من حبات الفضة، وردية للغاية ومدورة. ومثل تلك الساقين المصبوبتين اللتين يمتلكهما! كأنهما الفولاذ حين يثب، وعيناه لامعتان مومضتان...".

ألقت بيديها حول ماريا وقبلتها في عنقها بشغف ورشفتها بعنف حتى أن الصبية توردت وجنتاها وتملصت من ذراعيها المطبقتين.

ألقت لوسيا بنفسها على السرير وضحكت كالممسوسة.

"يا لك من سخيفة اليوم؟"، هتفت ماريا، "إذا واصلت هكذا فسأنزل إلى تحت".

"لكن ما الذي حدث؟ أليس للمرء الحق بأن يمرح مرة في حياته؟ هنالك من المشاكل ما يكفي في هذا العالم، فما بقلبي أكبر مما أستطيع تحمله. أليس حبيبي في الحرب الآن ويرقد مقاسياً المرض وما هو أسوأ من ذلك؟ ماذا لو قتل أو جعلوه عاجزاً! إنها لتعاسة حقيقية بمجرد التفكير بالأمر. ماذا لو أنهم الآن قد أردوه بالرصاص أو جعلوا منه مقعداً. ارحمني يا ربي، أنا الفتاة التعيسة، لن أعود إنسانة من جديد".

أخفت وجهها في شرشف السرير وانتحبت: "آه كلا، كلا، كلا، يا حبيبي، يا لورنس الحبيب، سأكون مخلصة لك، في غاية الإخلاص، لو أن الرب فقط جعلني أحظى بك سالماً. آه يا آنسة، يا آنسة! لا يمكنني احتمال هذا أبداً!".

حاولت ماريا تهدئتها بالكلمات والملاطفات، وفي الختام نجحت بجعل لوسيا تجلس وتجفف عينيها.

"نعم، يا آنسة"، قالت لها، "لا أحد يعرف ما الذي أقاسيه

Twitter: @alqareah

في داخلي. لا يمكن للمرء أن يتصرف كما ينبغي طوال الوقت. ولا فائدة من أن أجلس وألوم نفسي على أخطائي مع الشبان اليافعين. فحينما يشرعون بمداعباتهم والتعبير عن إطراءاتهم. لساني يحكني لكي أرد عليهم من جديد لأحظى بقليل من المرح، لكن حين أفكر بالمكان الخطر الذي فيه لورنس، آه فإنني أندم بأقصى ما تتحمله روح كائن حي. لأنني أحبه يا آنستي، ولا يجب أن أكون مخلصة لأحد غيره. آه، حينما أكون مضطجعة في السرير، وضوء القمر يشع من النافذة على الأرضية، أتحول إلى إنسانة أخرى فأكون في غاية التعاسة ثم أشرع بالبكاء وأنتحب إلى أن أحس بأنني على وشك الاختناق. آه، يا للهول! بعدها أظل مضطجعة ومرمية في سريري وأصلي للربّ ولا أعرف ما الذي أصلي من أجله، وفي بعض الأحيان أخرج تماماً من طوري أجلس في سريري ماسكة برأسي وأنا في غاية الرعب من أن أكون على وشك أن أفقد عقلي من التوق. لكن يا يسوع المخلص، يا آنسة! أنت تبكين الآن، بالتأكيد أنت لا تتوقين لأحد بالسرّ، وأنت في ريعان الشباب؟".

توردت وجنت ماريا وابتسمت بوهن، كان ثمة شيء مداهن في فكرة أن تكون عاشقة وتتوق لأحد.

"كلاّ، كلاّ!"، قالت لها، "لكن ما تقولينه محزن للغاية، وكأنّ لا شيء موجود غير التعاسة والقلق".

"بالتأكيد ليس كذلك، هنالك أشياء أخرى أيضاً"، قالت لوسيا ونهضت حينما نودي عليها من الأسفل، وبعدها مضت موجهة إيماءة ماكرة إلى ماريا.

تحسرت ماريا، مضت نحو النافذة وتطلعت خارجاً منحدرة بنظرتها إلى مقبرة سانت نيكولاي الخضراء، الرطبة، إلى جدار

Twitter: @alqareah

المقبرة الكنيسة الأحمر، ثم باتجاه القلعة ذات السقف النحاسي المكدر، مجتازة المرسأ الملكيّ والترسانة، ثم استدارت نحو بوابة أوستربورت ذات البرج النحيف، عابرة الحدائق والأكواخ الخشبية ومع المياه الزرقاء المحيطة بها والتي تتماهى من السماء الزرقاء المشوبة ببعض الغيوم.

ثلاث أشهر مرت على وجودها في كوبنهاغن. حين غادرت البيت آنذاك كانت تعتقد أن الحياة في المدينة المأهولة ستكون شيئاً مختلفاً كلياً عما كانت تعرفه. لم يخطر في بالها أنها ستكون أشدّ وحدة عما كانت عليه في عزبة تشيله التي كانت تشعر بما يكفي من الوحدة هناك.

لم يكن لها صحبة مع والدها فقد كان منصرفاً كلياً لنفسه إلى درجة أنه لا يستطيع أن يكون شيئاً بالنسبة إلى الآخرين على الإطلاق. لم يكن عمره أربعة عشر عاماً حينما تحدث مع فتاة بلغت الرابعة عشر، ولن يكون أنثى لأنه تحدث مع فتاة صغيرة، سيكون دائماً على الجانب المعتم من الخمسين ويكون دائماً السيد غيريك غروبة.

محظية الوالد، التي كانت تحكم كما لو أنها سيدة المنزل، كانت ماريا لا تراها من دون أن يستفزّ كل ما في جوانحها من كبرياء ومرارة. تلك الفلاّحة الفظة، المتسلطة كانت تجرحها وتؤذيها دائماً حتى أن ماريا لم تكن ما أن تكاد تسمع خطواتها حتى تقسو وتستحيل إلى عنيدة وحقودة من دون وعي تقريباً. أختها نصف الشقيقة، الصغيرة آنا كانت مزعجة ومدللة مما يجعل من الصعب عليها التواصل معها، والأدهى من ذلك أن الأمّ جعلت الطفلة سبباً للإساءة إلى ماريا عند إيريك غروبة.

Twitter: @alqareah

لكن أية صحبة كانت لها آنذاك؟

نعم، كانت تعرف كل ممشى وطريق في غابة بيجوم، كل بقرة ترعى في المرج، كل طير في قن الدجاج. والتحيات اللطيفة التي يقدمها الخدم والفلاحون حينما تمر بهم، كانوا يقولون: آنستنا تقاسي ظلماً هناك، ونحن عارفون بهذا. نحن آسفون على ذلك ونحمل ذات الكره الذي تكنينه على تلك المرأة هناك.

لكن في كوبنهاغن؟

هنا عندها لوسيا وهي تحبها كثيراً، لكن بعد كل شيء هي مجرد خادمة، كانت تأتمنها على كل أسرارها وهي سعيدة بذلك وممتنّة له، لكنها لم تكن تأتمن لوسيا على أسرارها؛ لا تستطيع أن تبوح بشكواها إليها، ولن تطيق تحمل رؤية وجهها في حالة التعاسة ولن تتحمل أن تقوم الخادمة بالحديث عن علاقاتها العائلية التعيسة، لن تنبس ببنت شفة حتى وإن كانت ضد عمتها، رغم أنها لم تكن لتحب عمتها ولا يوجد لديها سبب يدعوها لذلك.

كان لريجتز غروبة نظريات عصرها القاسية جداً فيما يتعلق بفائدة التربية وفق المبادئ الصارمة. وقد أخذت على عاتقها تربية ماريا وفقاً لذلك. لم يكن لديها أية أطفال الآن ولا سابقاً، وكانت فقد كانت أشدّ المربيات نفاذاً للصبر، كما أنها كانت خرقاء للغاية لأن الأمومة لم تعلمها الفنون الصغيرة الخاصة التي تسهّل الطريق على الطفل والمعلم. وطبعا، مثل هذه التربية القاسية كانت ربما نافعة جداً لماريا، فهي، عقلاً وتفكيراً، قد نشأت من جهة في ظلّ نقص الرقابة الثابتة والمتابعة، ومن جهة أخرى تعطل نموهما ولم يكتمل بسبب النزوات الوحشية المفرطة، ولعلها شعرت بنوع من السلام والارتياح بأن تكون مقتادة بأيدي صارمة وعنيدة على

Twitter: @alqareah

الطريق الذي يتوجب أن تسير فيه، من قبل شخص في جميع الأحوال لم يكن يريد لها سوى الخير في حياتها.

لكنها لم تقاد على هذه الشاكلة.

كان للسيدة ريجتز الكثير مما يشغلها في السياسة والمؤامرات، تقضي أغلب أوقاتها في صحبة رجال البلاط، حتى أنها تكون في العديد من الأحيان خارج المنزل ليوم أو يومين، وعندما تعود إلى البيت تكون عادة مشغولة حتى أن ماريا تفعل بنفسها ووقتها ما تشاء. حين تنتبه السيدة ريجتز لوهلة أخيراً إلى الصبية فإنّ كل مشاعر الإحساس بالإهمال تجعل من نفاذ صبرها يتضاعف بحدّة. العلاقة كلها بدت لماريا كمظهر لا ضرورة له بتاتاً وكانت مستعدة لإعطائها تصوراً عن أنها كانت شخصاً منبوذاً يكرهه الجميع ولا يحبه أحد.

فيما كانت واقفة عند النافذة تحدق إلى المدينة انتابتها مشاعر النبذ والوحدة، أسندت رأسها على حافة النافذة وحدقت في ضياع وتركت نظرتها تنزلق على الغيوم ببطء.

لقد أدركت في حزن ماذا كانت لوسيا تعني بالتوق الذي يكون مثل جمرة متوقدة داخل الإنسان، حيث ليس بالإمكان فعل شيء غير تركها تحترق كما تريد، إنها تعي ذلك جيداً، إلى أين سيؤدي كل هذا؟ كل يوم يمضي يشبه الذي سبقه، لا شيء، لا شيء يبعث على البهجة، هل سيستمر كل هذا؟ نعم، سيطول ذلك كثيراً! حتى ولو بلغ الإنسان السادسة عشر. ما هكذا تسير الأمور مع جميع الناس، على الأقل لن يكون عليها أن تسير معتمرة قبعة الأطفال حينما تبلغ السادسة عشر! لم تفعل الأخت آنا ماريا ذلك، وهي قد تزوجت الآن. كان يمكنها أن تتذكر بوضوح كل

Twitter: @alqareah

الصخب والعربدة اللذان حدثا في العرس لفترة طويلة بعد إرسالها إلى السريراً والموسيقى، سيمكنها كذلك أخيراً أن تتزوج، لكن من سيكون العريس؟ ربما مع أخي زوج أختها. صحيح أنه قبيح بشكل لا يطاق، لكن إذا توجب ذلك... من المستحيل أن يسعدها الأمر. ماذا يمكن أن يسعدها بشكل خاص هنا في هذا العالم. هل هناك من شيء؟ لا يمكنها أن ترى شيئاً.

سارت مبتعدة عن النافذة، جلست متفكرة عند الطاولة وشرعت بالكتابة:

"تحياتي الحميمة أبعثها إليك دائماً باسم الرب، يا عزيزتي آنا ماريا، أختي وصديقتي الطيبة، حفظك الله دائماً الذي أشكره على كل ما هو طيب. لقد حملت قلمي لأبعث إليك بتهنئاتي لأن ولادتك كانت سعيدة الطالع وأنك الآن بعافية وصحة طيبة. أختي العزيزة، أنا بخير وفي نشاط وصحة تامة. عمتنا، كما تعرفين، تعيش في أبّهة فخمة ولدينا دائماً العديد من الزوار، أغلبهم سادة من البلاط، وباستثناء القليل من السيدات العجائز فأنّ أغلب الزوار هم من الرجال. العديد منهم كان يعرف أمنا الراحلة ويمتدح جمالها وفضائلها. أنا أجلس دائماً عند الطاولة من الضيوف، لكن لا أحد يتفوه لي بكلمة عدا أولريك فريدريك، الذي أفضل أن أتخلص منه لأنه غالباً ما كان ما يميل لأحاديث التحرّش والسخرية أكثر مما يميل للحديث العقلاني. إنه ما يزال فتى يافعاً ولا يتمتع بسمعة طيبة، يقال أنه يتردد على الخمارات والحوانيت وما شاكل ذلك. ليس عندي الآن من جديد أخبرك به سوى أن لدينا اليوم اجتماع وأنه سيجيء إلى هنا. في كل مرة أتحدث فيها بالفرنسية يضحك عليّ كثيراً ويقول لا بد أن مائة سنة قد مضت لأن القس ينس كان

Twitter: @alqareah

يبدو مجرد شاب حينما سافر، أو يقدم لي بعض الإطراء حين أنجح في ترتيب الجملة فيقول بأن لا سيدة في البلاط يمكنها أن تقوم بأفضل من ذلك. لكنني أعتقد أن هذه ليست سوى مجاملات. لا أكترث لها. ليس لدي ما أكتبه عن تشيله، عمتنا لا تستطيع الكلام دون أن تلعن وتعول بسبب شناعة الحياة التي يعيشها والدنا العزيز مع امرأة من مثل هذه العصارة الوضيعة. أنا حزينة بفداحة، لكن ذلك يغير من الأمر شيئاً. لا تدعي ستيشو ترى هذه الرسالة، لكن بلغيه تحياتي من القلب. سبتمبر 1657

أختك الحبيبة

ماريا غروبة

السيدة المبجلة آنا ماريا غروبة، زوجة ستيشو هويس من جيوردسليو، صديقتي وأختي الطيبة، كُتبت الرسالة بكل المودة".

Twitter: @alqareah

نهـض الرجـل عن الطاولة وسـار نحو الردهـة الكبيرة، حيث كانت لوسيا تقدم الكونياك الذهبي لمن حولها. لاذت ماريا بشباك النافـذة واختبـأت تقريبـاً إلى نصفها وراء السـتارة المنبسـطة. سـار أولريك باتجاهها، انحنى بإكرام فائق لها وقال بوجه جاد للغاية أنه يشعر بالألم من جلوسه الطويل على الطاولة بعيداً عن المدموزيل. مـع حديثـه هـذا أراح كفه الصغيـرة البرونزية على أسـكفة النافذة. تطلعت ماريا إليها واحمرّت مثل قطرة دم.

"المعذرة يا مدموزيل، أرى أنكِ احمررت من الغضب لأنني سمحت لنفسي بتقديم أكثر احتراماتي تواضعاً! أرجو أن لا تكون وقاحة أن أسألك إلى أي مدى كنت سيئ الحظ وأزعجتك؟".

"في الحقيقة أنا لست غاضبة ولا محمرّة".

"حسـناً، وهـل تسـمين هـذا اللـون أبيـض؟ هـل يمكنـك بمساعدتي في معرفة اسم زهرة معروفة عموماً بأنها حمراء؟".

"لكن ألا يمكنك أن تقول كلمة واحدة متعقلة؟".

"نعـم، دعينـي أرَ، بلـى، أسـتطيع ذلـك، فـي الحقيقـة عندي بعضها، لكنها نادرة:

Doch Chloe, Chloe zurne nicht!
Toll brennet deiner Augen Licht
Mich wie das Hundsgestirn die Hunde,
Und Worte schaumen mir vom Munde
Dem Geifer gleich der Wasserscheu"

Twitter: @alqareah

"فعلاً، يمكنك قول ذلك!".

"آه يا مدموزيل، أنت لا تعرفين سوى القليل عن جبروت كيوبيد! هل تصدقين ذلك؟ هنالك ليال يولّهني فيها الحب حتى أني أهيم على وجهي مسلوب الإرادة فأنسلّ إلى حديقة الحرير، أثب من فوق السور إلى حديقة كريستيان سكيل وهناك أقف منتصباً مثل تمثال بين أريج الورد والبنفسج محدقاً إلى نافذة حجرتك إلى أن تداعب أصابع الفجر الوردية خصلات شعري".

"أه يا مسيو، أعتقد أنك قد لفظت الاسم خطأ حينما ذكرت كيوبيد وكان يتوجب عليك أن تقول إيفان، ولعلك قد ضللت طريقك حينما كنت تتجول أثناء الليل لأنك لم تكن واقفاً في حديقة سكيل، بل كنت في "مونس كابادوكيا" بين أقداح الشراب والقناني، ولم تكن منتصباً مثل تمثال لأن أفكار الحب ليست هي التي أثرت عليك بل شيء آخر سلب طاقة القدرة على الحركة من ساقيك".

"إنك ترتكبين خطأ كبيراً بحقي! قد حدث أن ذهبت إلى الخمارات في بعض الأحايين، لكن ليس لطلب المتعة ولا العربدة، لكن فقط لكي أنسى الأسى الخانق الذي يطبق عليّ".

"آه!".

"إنك لا تصدقينني! أنت لا تعرفين مدى وفائي في علاقاتي العاطفية، يا للسماء! هل ترين كوة تلك النافذة الشرقية في كنيسة سانت نيكولاي؟ لثلاث ليالي طويلة جلست هناك محدقاً في ملامحك اللطيفة حين تكونين منكبة على طاولة تطريزك".

"يا لك من تعيس! أنت تفتح فاهك بشق الأنفس ومع ذلك فإن المرء يمكن أن يضبطك تتحدث بطلاقة. أنا لم أجلس إطلاقاً

Twitter: @alqareah

عنـد طاولـة تطريـزي بمواجهـة سـانت نيكـولاي. هـل تعرف هذه الطقطوقة:

كانت الليلة حالكة
أمسك رجل بعفريت
قال الرجل للعفريت:
هل تريد أن تفلت من أسري
وتعود للبيت هذي الليلة
إذن علمني بسرعة
بدون مكر ولا خداع
أصدق كلمة تعرفها.
اسمع! قال له العفريت ولم يتفوه بكلمة
أفلته الرجل والعفريت طار
فلا أحد على الأرض
يمكنه أن يقول أن العفريت كذاب"

أحنـى أولريـك فريدريـك رأسـه احتراماً لها ومضـى دون أن ينطق بكلمة.

تطلعـت هـي إليـه حينما كان يسـير فوق الأرضية، كان يسـير برشاقة، جورباه الحريريان كانا أبيضين شديدي اللمعان ويلتصقان علـى سـاقيه، لـم تكـن بهما أدنـى ثنية أو تجعّد، يـا لروعتهما عند الكاحليـن! وزوج الأحذيـة الصغيـر ذاك، إن النظر إليه يثير البهجة كثيراً. لم تلحظ على الإطلاق قبلاً أن ثمة ندبة وردية على جبهته.

نظـرت خلسـة إلـى يديه، ففتحت فاهها قليـلاً، كان تعتقد أن أصابعه في غاية القصر.

Twitter: @alqareah

حلّ الشتاء. أصبحت الأوقات صعبة على طيور الغابة وحيوانات الحقل، كان عيد الميلاد فقيراً بين جدران الأكواخ الطينية والسفن الخشبية. الساحل الغربي كان محتشداً بكثافة بالأنقاض: سفن متجلّدة، صوار متشظية، قوارب مهشمة وسفن ميتة. كان الأسطول يقبع مدحرجاً على الشاطئ، مهشماً إلى شظايا لا قيمة لها، غارقاً، مجروفاً أو غاطساً بالرمال، فالعاصفة التي كانت تهب باتجاه اليابسة والبحر العالي والبرد القاتل كانت الأيدي البشرية تقف عاجزة بمواجهتها. السماء والأرض توحّدا في برد الجليد العاصف الذي كان يتدفق عبر صدوع الكوى وشروخ النوافذ، والجاً تحت سقوف الفقراء وأبواب الأغنياء والأغطية الموشاة، مطوفاً كشحاذ بصقيع يجلب الموت للناس اللائذين بالخنادق والأسوار، الفقراء يموتون من البرد في أسرة القش فيما ماشية الأغنياء أوفر حظاً بقليل.

بعدها هدأت العاصفة وحل محلها جليد واخز. كانت فترة باهظة على المملكة والبلاد التي دفعت فاتورة الشتاء على حماقة الصيف، فالجيش السويدي اجتاز المياه الدنماركية.

بعدها حل السلام، تبعه الربيع بخضرة مشرقة وطقس مشرق، لكن شباب شيلاند لم يمتطوا جيادهم يجوبون المدينة في مايو هذه السنة، فقد كانت مكتظة بالجنود السويديين من جميع الجهات. كان هنالك سلم، لكن بما أن الحرب قد اندلعت فليس من المتوقع أن يطول أمد السلام.

Twitter: @alqareah

ولم يدم أمده طويلاً على كل حال.

جينما استحالت خضرة مايو إلى قاتمة ومتيبسة تحت لهيب شمس منتصف الصيف سار السويديون باتجاه متاريس كوبنهاغن.

في الأحد الثاني في أغسطس انبثقت إشاعة مفاجئة تقول أن السويديين قد نزلوا في كورسو.

سرعان ما امتلأت جميع الشوارع. تجول الناس هادئين ومتيقظين، لكنهم يتحدثون كثيراً، جميعهم كانوا يتحدثون، وكان الصوت المنبثق من أصواتهم ووقع خطاهم ينصهر إلى أزيز قويّ، ممزوج، لا يمكن أن يصبح أعلى ولا أقلّ إطلاقاً، ولا أن يتوقف أيضاً، بل يظل متواصلاً في إيقاع ثقيل، رتيب وغريب.

سرت الإشاعة إلى داخل الكنيسة أثناء الموعظة في همس سريع مقطوع النفاس تقافز من أول جالس في الصفوف الأمامية إلى الثاني، ومن ثم إلى ثلاثة في الصف الثالث مجتازاً عجوزاً وحيداً في الصف الرابع إلى خمسة في الصف الخامس وهلم جرًّا إلى نهاية الصفوف. الجالسون في الوسط كانوا يديرون رؤوسهم نحوهم ويهزونها باهتمام كبير. في نهاية الصفوف كان ثمة من نهض وتطلع مرتاعاً باتجاه المخرج. بعد برهة قصيرة لم يعد أحد منهم يتطلع إلى القس، الجميع جلس منحني الرأس وكأنهم يستجمعون أفكارهم حول كلمات الموعظة، لكنهم كانوا يهمسون لبعضهم البعض، يصمتون بين الفينة والفينة ويصغون في توتر لوهلة إلى موعظة القس ليستشفوا مدى وصوله إلى نهايتها، ثم يعودون بعدها مواصلين الهمس. الصوت الخافت لحشود البشر في الشارع خارجاً كان يسمع بوضوح وتصاعد حتى صار سماعه

Twitter: @alqareah

لا يحتمل، رجال الكنيسة انشغلوا بمهمة في السر بدس كتب الصلوات في الجيوب.

"آمين!".

استدارت جميع الوجوه نحو القس.

في الشطر الأول الاعتيادي من الصلاة فكّر الجميع بأن القسيس كان يعرف شيئاً ما. تلي ابتهال لأجل العائلة المالكة، لأجل مجلس الدولة والنبلاء المبجّلون، لكل من كان في منصب سام أو وظيفة مهمة، حتى ترقرقت الدموع في أعين العديد من الحاضرين، لكن حين وصل إلى الشطر الثاني من الصلاة بدأ بعضهم ينشج ويتمتم، لكن بصوت مسموع تصاعد من مئات الشفاه: "فليحم الرب بلادنا هذه وملكنا من الحرب وسفك الدماء، من الأوبئة والموت المفاجئ، من الجوع والجفاف، من العواصف والأنواء، من الطوفان والحرائق، لأننا بنعمته نسبح ونمجد اسمه".

قبل أن ينتهي الابتهال كانت الكنيسة فارغة، فقط نغمات الأرغن كانت تصدي وحدها في المكان.

في اليوم التالي كانت الحشود مرة أخرى تتجمهر على قدم وساق ولديها هدف معين تسير باتجاهه، الأسطول السويدي أرسى عند الليل مراسيه على أطراف دراجور. كان الناس أقل اضطراباً ذلك اليوم، وذلك لأنه كان معروفاً أن عضوين من مجلس الدولة قد شدا الرحال لعقد مفاوضات مع العدو وأنهم قد فوضوا الصلاحية المطلقة التي تضمن عقد معاهدة سلام. لكن حينما عاد عضوا المجلس يوم الثلاثاء ببلاغ مفاده أن السلم لن يكون فقد حدث رد فعل مفاجئ وعنيف.

لم يعودوا حشد مواطنين رصينين تتجمهر قلقة تحت وطأة

Twitter: @alqareah

أخبار خطيرة وكبيرة، بل أضحوا قطعان مخلوقات خرقاء مضطربة لم تُر قبلاً بين متاريس كوبنهاغن ولا كان يبدو عليها كأنها عاشت في تلك البيوت الهادئة وإمارات الوقار تلوح على سيمائهم على كل المستويات في جميع أعمالهم اليومية. يا لهياج هذه الأكياس ذات الأكمام الطويلة والمعاطف الموشاة! أيّ صخب جهنميّ تثيره هذه الشفاه الجادة والإيماءات العنيفة بتلك الأيدي الممتدة من المعاطف الضيقة! لا أحد يريد أن يكون لوحده، لا أحد يرغب بالبقاء خلف الأبواب، الجميع يقف في منتصف الجادة يكتنفهم القنوط والرهبة بعويلهم ودموعهم.

أنظر إلى هذا الرجل الجليل العجوز، برأسه المشكوف وعينيه المحتقنتين، إنه يدير وجهه الرماديّ باتجاه الجدار ويخبط عليه بقبضتيه المضمومتين! أنصت إلى لعنات الدبّاغ البدين على أعضاء المجلس الحكوميّ وهذه الحرب التعيسة! راقب الدماء كيف تحترق في خدي ذلك الفتى من شدة الحقد على العدو الذي يريد جلب كل أشكال الرعب معه، والتي بدأ منذ الآن يعيشها في خياله!

لكم يجأرون بغيظ على عجزهم الذي يعتقدون، وعلى الرب في السماء، يا لها من صلاة، يا لها من صلاة جنونية!

توقف العربات هادئة في الشارع، وضع الخدم سلالهم ودلائهم عند المداخل والبوابات، وبين الفينة والفينة كان يخرج بعضهم سريعاً من البيوت مرتدياً أفضل ملابسه، محتقن الوجه من الإجهاد، يتطلعون فيما حولهم على حين غرة، يلقون بنظرة عجلى على أنفسهم ثم يندفعون مختلطين بحشد الناس ويتحدثون بحماس لصرف النظر عن ثيابهم المزركشة. ما الذي يشغل رؤوسهم؟ ومن أين يقدم كلّ هؤلاء السكارى الفظين؟ إنهم يتجمهرون، يترنحون

Twitter: @alqareah

ويزعقون، يتشاجرون ويسقطون، يجلسون فوق درجات السلالم مرضى، يقهقهون بصخب، يلاحقون النساء ويحاولون العراك مع الرجال.

كان ذلك هو الرعب الأول، رعب الغريزة. عند منتصف الظهيرة كان قد تلاشى. استدعي الرجال إلى المتاريس، كدحوا بكل ما في أيام العطل من طاقة، شاهدوا الخندق يزداد عمقاً والمتاريس تتعالى تحت مساحيهم. كان الجنود يمرون عابرين. حرفيون، طلبة وخدم للنبلاء قاموا بالحراسة مسلحين بكل أنواع الأسلحة الغريبة، المدافع سحبت إلى فوق، الملك شدّ ركابه صوب الخندق وأُعلن أنه سيمكث هناك، الأمور صارت أكثر عقلانية بتعقل الناس أنفسهم.

عند ظهيرة اليوم التالي شبت النار في الضاحية التي تقع خارج البوابة الغربية. انساب دخان الحرائق فوق المدينة وجعل من الناس مضطربين، وعند الغسق، حينما ضربت النيران بلهبها الأحمر جدران برج كنسية سيدتنا وتلاعبت على الأجراس المرفوعة على قمة كنيسة القديس بطرس وصلت الأخبار التي تعلن أن الأعداء قد هبطوا من تلال "فالبي" في مثل ما يشبه حسرة المرعوب عبر أنحاء المدينة. عبر كل الشوارع، المماشي والأزقة ثمة رهبة واضطراب: "السويديون، السويديون!" تراكض الأولاد عبر المدينة هاتفين في نبرة حادة، اندفع الناس نحو الأبواب متلفتين برعب نحو جهة الغرب، الأكشاك أغلقت، وتجار الخردوات جمعوا أغراضهم على عجل، وكأنهم كانوا يتوقعون أن جيشاً عرمرماً للأعداء سيقتحم المدينة حالاً.

مشارف الخندق والشوارع المجاورة كانت سوداء من البشر

Twitter: @alqareah

الذيـن يحدقـون إلـى النـار، كان ثمـة جمـوع أخـرى تتجمهـر في الأماكن التي لا يمكن مشـاهدة شـيء من الحريق فيها، على سـبيل المثال المماشي السرية والنوافير. كانت هناك أمور عديدة مطروحة للنقاش، أولها وأهمها متى يبدأ السويديون هجومهم، في الليل الآن أم سينتظرون إلى الصباح الباكر؟

جيرت بيبر، صباغ من منطقة النافورة، يعتقد أنهم سيشرعون بالهجوم حالاً ما أن تنتظم وحداتهم للمسير. لماذا عليهم الانتظار؟

التاجر الإيسلنديّ، إيريك لوريتزن من شارع الصبّاغين، يعتقد أن الأمـر سـيكون محفوفـاً لو هجمـوا في الليل تحت جنح الظلام على مدينة لا يعرفون فيها أين هي اليابسة وأين الماء.

"ماء!"، قال جيرت الصباغ، "أتمنى من الله أن نعرف عن أمورنا نصف ما يعرفه السويديون! لا تتحدث هكذا عن الموضوع! إن عيونهم مندسة بيننا وتترصد أقل شيء. عليك عدم الثقة بذلك، نعم! هذا شيء معروف حتى لعمدة المدينة ومجلس الحكم، لأنّ النبـلاء كانـوا يتجولـون منذ الصباح الباكر فـي كل زاوية ومنعطف للعثور على جواسيسهم. اخدعهم بقدر ما تستطيع! السويدي ماكر خصوصـاً فـي هـذه الأمـور. إنها موهبـة طبيعية. لقـد عرفت ذلك بنفسـي منذ بضعة سـنين خلت، لا يمكنني نسـيان تلك العفريتة... ترون الأزرق تحوله إلى أسود وتجعل الضوء أزرق، كما أنها تغير الأزرق الخفيف إلى معتدل".

"حسناً يا سيد جيرت"، قال التاجر، "حسناً، حسناً!".

"حقيقة"، واصل الصباغ حديثه، "كما سأقول لكم، قبل بضع سـنين كان لدي غلام صانع أمه سـويدية، كرس نفسـه لمعرفة نوع المادة الكاوية التي أستخدمها للون القرفة، ولكني كنت دائماً أقوم

Twitter: @alqareah

بمزجها خلف أبواب مغلقة، فلم يكن من السهل استنشاقها. وماذا فعل هذا الوغد؟ اسمعوا فقط الآن، كان هنالك الكثير من الهوام حول النافورة، وكانت تلتهم صوفنا وكتاننا، ولهذا السبب كنا دائماً نعلق الأنسجة التي يسلمها الناس لنا في أكياس الجنفاص تحت عوارض السقف، وماذا فعل ابن الشيطان هذا، جلب أحد الغلمان ليعلقه في أحد الأكياس، وحين دخلت ووزنت ومزجت وأعدّل قاطعاً نصف العملية علق أحد الكلاليب بفخذه فبدأ يرفس ويصيح طالباً المساعدة لإنزاله... هل ساعدته! موت وجهنم! لكنها كانت حيلة حقيرة تلك التي فعلها معي، نعم، نعم، نعم! هكذا هم، لا يمكنك أبداً الوثوق بسويدي على عتبة الباب".

"أبداً، أنت على حق في ذلك، إنهم قوم بشعون هؤلاء السويديون"، قال إيريك لوريتزن، "لا شيء لديهم يمضغونه حينما يكونون في بيوتهم ولذلك حين يأتون بقاعاً أجنبية لا يشبعون أبداً. إنهم مثل أطفال الفقراء، حينما يأكلون يأكلون لجوع يومهم وللأيام القادمة والماضية معاً. يمكنهم أن يكونوا لصوصاً ونشالين، بل وحتى قتلة أيضاً، فليس عبثاً أن يقال: سريع المطواة مثل لاسه السويدي".

"كما أنهم متهتكون"، تدخل الصباغ في الحديث، "هذا لا يقبل الشك، إذا رأيت جلاداً يسوط امرأة في المدينة وسألت من تكون هذه المرأة فسيأتيك الجواب أنها عاهرة سويدية".

"نعم، دماء الناس مختلفة، والحيوانات كذلك. السويدي بين البشر مثل القرد بين البهائم العجماء. لديه شهوات غير لائقة ونار مستعرة ضارب في طبعه حتى أن العقل الطبيعي الذي منحه الرب سبحانه لكل البشر غير قادر على منع رغباته الشريرة وشهواته

Twitter: @alqareah

الآثمة".

هزّ الصبّاغ رأسه عدة مرات مؤكداً نظرية التاجر قائلاً: "بالفعل، يا إيريك لوريتزن، فعلاً. السويدي مجبول من طينة خاصة وغريبة تختلف عنا نحن بقية البشر. أنا أستطيع أن أشم رائحة الشخص الأجنبي الذي يدخل سقيفتي وأعرف فيما إذا كان سويدياً أو من قوم آخرين. السويدي له رائحة زنخة شبيهة برائحة الماعز أو زيت السمك. كثيراً ما تفكّرت في هذا الأمر لكن كما تقول أنت ثمة مزاج شهواني وطبع بهيمي يتميزون به".

"بالتأكيد، ليس في الأمر سحراً"، أدلت امرأة عجوز كانت واقفة قربهم بدلوها في القضية، "السويديون والأتراك يفوحون برائحة تختلف عن رائحة المسيحيين".

"آه، هذا الذي تقولينه هراء، يا ميتا بائعة الخردل"، قاطعها الصباغ، "ألا تعتقدين أن السويديين مسيحيون؟".

"سمهم مسيحيون أن رغبت، يا جيرت الصباغ، لكن الفنلنديين والوثنيين والعفاريت لا يمكنها أن تصير مسيحية وفق كتاب صلواتي، والأمر حقيقة مثل الذهب بان ما حدث في زمن الملك كريستيان، رحمه الله، حينما كان السوديون في يولاند. كان هنالك فوج كامل منهم يغذ المسير ليلة واحد عند بزوغ القمر الجديد وعند بلوغ منتصف الليل يتراكضون الواحد عن الآخر مثل مسوخ الذئاب أو الشياطين الأخرى مذعورين في أرجاء الغابات والمستنقعات جالبين سوء الطالع للناس والماشية".

"لكنهم يذهبون للكنيسة أيام الأحاد حسبما أعرف، ولديهم قساوسة وكهان مثلنا نحن".

"آه، طبعا! دع الأغبياء يصدقون ذلك! يذهبون إلى الكنيسة،

Twitter: @alqareah

هؤلاء الزمرة الدنسة، مثلما تطير الساحرات عندما تتلى صلوات المساء في قدّاس القديس يوحنا على الهضاب. كلاّ، إنهم مسحورون ولا يمكن أن يؤذيهم لا الرصاص ولا البارود، ونصفهم يمتلكون عيناً شريرة وإلاّ فلماذا يحل الجدري في أي مكان تضع هذه كلاب الجحيم أقدامها اللعينة فيه. أجبني عن ذلك، يا جيرت الصباغ، أجبني إن استطعت".

كان الصباغ على وشك الإجابة حينما قال له إيريك لوريتزن، الذي كان لبعض الوقت يتطلع باضطراب فيما حوله: "هشش، هش يا جيرت بيبر، من هو ذلك الرجل الذي يتحدث مثل واعظ هناك والناس واقفين متجمهرين حوله؟".

سارعا للالتحاق بالحشد، فيما كان حيرت الصباغ يوضح بأنه قد يكون بالتأكيد يسبر كيم الذي يعظ في كنيسة الروح القدس، لكن كما سمع من أناس يعرفهم حق المعرفة فإنه لم يكن خالص الإيمان في عقيدته لكي ترتفع رتبته الكهنوتية.

كان الخطيب رجلاً ضئيلاً في الثلاثينات، ذا شهر طويل أملس وأسود، ذ وجه عريض وأنف سميك، صغير، وعينين لاعبتين، قهوائيتن، وشفتين حمراوين. كان واقفاً على دكة باب مومئاً بقوّة ويتحدث في سرعة وحماس بصوت غليظ ولاثغ.

... "في الفصل السادس والعشرين"، قال لهم، "يكتب القديس متي في الآية 51 - 54: وإذا واحد من الذين مع يسوع مد يده واستلّ سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه، فقال له يسوع: ردّ سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يموتون. أتظنّ أنني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدّم لي أكثر من إثني عشر جيشاً من الملائكة؟ فكيف تكمل الكتب أنه

Twitter: @alqareah

هكذا ينبغي أن يكون؟".

"نعم، يا مواطنيّ الأحباء! ينبغي على هذا أن يكون. هنالك الآن خارج أسوار المدينة الهزيلة ومتاريسها الواهنة جيش عرمرم مدجج بالسلاح وملكهم وقادتهم قد أمروهم بأفواههم المشحونة أن يخضعوا هذه المدينة، بالنار والسيف، بالانقضاض والحصار، وجعلنا جميعاً عبيداً لهم".

"وهؤلاء الذين في المدينة ينظرون بأمّ أعينهم إلى سلامهم وهو مهدد وخرابهم وهو قادم يقررون بلا إنسانية أن يسلحوا أنفسهم، يجلبون المنجنيقات وآلات الحرب المدمرة الأخرى إلى المتاريس والأسوار ويقول أحدهم للآخر: أليس علينا أن نهوي بالنار المحرقة والسيوف اللامعة على جلود من يريد أن يجلب علينا الخراب؟ لماذا يوقظ ربّ السماوات البسالة والجرأة في قلب الإنسان إذا لم يكن بقصد مقاومة مثل هؤلاء الأعداء وصدهم؟ ومثلما فعل بطرس الرسول سيسحبون سيوفهم ويقطعون من مَلخُس أذنه، لكن يسوع يقول: ردّ سيفك إلى مكانه لأنّ كلّ الذين يأخذون السيف بالسيف يموتون. حسناً، ربما يكون ذلك ربما يبدو هذا كلاماً غريباً لمن أفقده الغضب رشده وأعمى الغضب بصيرته. لكن الكلمة ليست مثل رنين الصنوج للسماع فقط، إنها مثل متن السفينة المحمل بالعديد من الأشياء الثمينة، هكذا الكلمة محملة بالحكمة والنصيحة، لأن كلمة الربّ مقصدها الإدراك والفهم. لذلك دعونا نتفحّص في الكلمة لننجح بالعثور على التأويل الذي يستوجب هذا التبرير، لأيّ سبب ينبغي على السيف أن يظل في مكانه، ولِمَ من يأخذ السيف بالسيف يموت؟ هذا يدفعنا أن نأخذ بالاعتبار أمور ثلاثة: "أول هذه الأمور أن الإنسان حكيم ووفقاً

Twitter: @alqareah

لـك المقاييـس عالـم مصغـر للكـون أو كما يمكن تفسـيره بأرض غيـرة، عالـم مـن الخيـر والشـر، وإلاّ لما قال الرسـول يعقوب أن اللسـان وحـده عالـم من الجور. فماذا بشـأن بقية أعضاء الجسـد، العينين الشهوانيتين، القدمين المتعجلتين، اليدين الجشعتين، البطن الشرهة، بل حتى الركبتين المتضرعتين، والأذنين المنصتتين؟ وإذا كان الجسـد هو العالم فكم هو حجم روحنا النفيسـة والسـرمدية! الـروح هـي العالـم، نعـم، مثل حديقة ملأى بأعشـاب حلوة ومرّة، مليئة بالشـهوات الشـريرة كالحيوانات الضارية والطاهرة كالخراف البيـض. وذلـك الـذي يجلـب الخـراب علـى عالم كهـذا ألا ينظر إليه كأسوأ من مشعل النار أو مثير الفتن، أو كمثل مجرم أو لص حقول؟ وأنتم تعرفون أي عقاب ينبغي أن ينال أمثال هؤلاء".

هبـط الظـلام وبدت جمهـرة الناس المتحلّقيـن حول الواعظ مثل حشد كبير، قاتم، بطيء الحركة لكنه ما زال في يتكاثر.

"الأمر الثاني هو أن الإنسـان صورة مصغرة تعكس الذات الإلهيـة العظيمـة. ألـن ينظـر إلـى مـن يضع يده على صـورة الربّ كأسـوأ ممن يسـرق أواني الكنائس المقدسـة أو أردية الرهبان أو من ينتهك الكنيسـة؟ وأنتم تعرفون أي عقاب ينبغي أن ينال أمثال هؤلاء".

"آخر الأمور وثالثها هو أنّ أول واجب على الإنسان نحو ربه ويديـن لـه بـه هـو أن يكافح ويجاهد من أجله بـلا انقطاع، معتمراً ببـردة الطهـارة المتلألئة ومتمنطقاً بسـيف نار الحقيقة. مسـلح مثل هذا يتوجب عليه أن يقاتل مثل محارب إلهيّ يجز حنجرة الشيطان ويشقّ بطنه. لذلك ينبغي على سيف الجسد أن يظلّ في مكانه، لأن لدينا بلا ريب ما فيه الكفاية مما نحتاجه للقتال بهذه الروح!".

Twitter: @alqareah

من طرفي الشارع كانت يرى بين الفينة والفينة بعض الناس منسلين إلى بيوتهم وهم يحملون بأيدهم أسرجة مضيئة، وما أن يصطدمون بالحشد حتى يتخذون مكانهم في أطراف الحشد إلى أن تشكلت نصف حلقة متلألئة بالشموع الصغيرة تضيء وتنطفئ مع حركة الحشد. وبين الحين والآخر كان يرفع أحد المصابيح في الهواء تاركاً لضوئه المطفطف أمر البحث في جدران البيوت البيض وألواح نوافذها المعتمة إلى أن يستقرّ أخيراً على وجه الواعظ الصارم.

"لكن كيف يكون ذلك؟ ربما تقولون في قلوبكم: هل ينبغي علينا تسليم أنفسنا مقيدي الأيدي والأقدام إلى عدوّنا، إلى العبودية وأحزان الذلّ؟ آه يا أحبائي! لا تقولوا هذا! لأنكم ستكونون في عداد من يعتقدون أن يسوع لن يبتهل لوالده ليمدّه بأكثر من إثني عشر جيشاً من الملائكة. آه، لا تقعوا في براثن اليأس! لا تتذمروا في قلوبكم ضد نصيحة الرب، ولا تجعلوا من أكبادكم سوداً ضد مشيئته! لأن ذاك الذي يحطمه الرب سيُحطّم، وأن ذلك الذي ينهضه الرب سيظلّ في أمان. وهو، سبحانه، لديه سبل عدة تقودنا خارج التيه وصحارى الخطر، أليس لديه القدرة على قلب العدوّ، أَوَ لم يدع ملاك الموت يجتاح معسكر سنحاريب؟ أو هل نسيتم يم البحر الأحمر المبتلع أو وهلاك فرعون الملك السريع؟".

عند هذه النقطة قوطع يسبر كيم.

كان الحشد كان يصغي هادئاً تماماً، فقط من جهة الصفوف الخارجية كانت تصدر بين الفينة والفينة أصوات تمتمات خافتة، مهددة. بعدها صاحت ميتا بائعة الخردل بصوت حاد ملعلع: "هوو، يا كلب الجحيم! ألا تخرس لسان الكلب الأسود الذي هو أنت!

Twitter: @alqareah

لا تصغوا إليه، إنها نقود السويديين التي تنطق من فمه الآن!".

مضت برهة في سكون تام قبل أن يندلع الهرج والمرج: "إهانات، أقسام ولعنات انصبت فوق رأسه. حاول أن يتحدث لكن الصيحات أضحت أقوى واقتربوا من دكة السلم ملوحين بقبضاتهم المهددة. ثمة رجل صغير أشيب يقف في المقدمة كان طيلة الوقت ينتحب أثناء الخطبة، اندفع غاضباً نحوه بعصاه الطويلة ذات المقبض الفضي.

"أنزلوه!" تعالت الصيحات، "أنزلوه، يجب أن يبتلع ثانية ما تلفظ به، عليه أن يعترف كم حصل لكي يقوم بتضليلنا. أنلزوه! دعونا نجلسه على كرسي الاعتراف! ستعرف كيف ننتزعها منه".

"ضعوه في السرداب، ينبغي أن يكون هناك"، هتف آخرون، "في سرداب بهو المحافظة! اسحبوه إلى تحت! اسحبوه إلى تحت!".

كان رجلان قويان قد أمسكا به، فتشبّث التعيس بكل قواه بدرابزين الدرج الخشبيّ لكنهما جرّا كلا من الدرابزين والواعظ إلى الشارع وأنزلوه إلى الحشد الذي استقبله بالرفسات والقبضات. حمشت النساء شعره وخديه، أما الصبيان الذين كانوا واقفين هناك ممسكين بأيدي آبائهم فقد كانوا يتطلعون ويتقافزون من المتعة.

"دعوا ميتا تتقدم!"، تعالت صيحة من الخلف، "أفسحوا الطريق على الجانبين! ميتا ستقوم باستجوابه".

برزت ميتا إلى أمام. "هل ستتقيأ مواعظ الشيطان من جديد، أيها المعلم الأفّاك؟".

"أبداً، أبداً! يجب المرء أن يطيع الرب أكثر مما يطيع الناس، مثلما هو مكتوب".

Twitter: @alqareah

"بل يتوجب هذا!"، قالت ميتا ونزعت قبقابها الخشبي وهددته به، "لكن الناس عندهم قباقيب خشبية، ثم أنك من أجراء الشيطان وليس الربّ، سأضربك على أم رأسك حتى يتناثر دماغك على الجدران هذه!" ثم خبطته على يافوخه بالقبقاب.

"لا تأثمي بحقي، يا ميتا!"، أنّ الواعظ.

"خذ هذه إذن أيها الشيطان!"، زعقت ميتا.

"هشش، هش"، تعالت صيحة أحدهم، "خذوا حذركم، خذوا حذركم ولا تتحاشدوا هكذا، إنه جيلدنلو جنرال الفيلق!".

مرق شخص ممشوق على متن جواده.

"عاش الجنرال جيلدنلو! جيلدنلو الشجاع!"، هتفت الجموع. لوّحوا له بالقبعات والقلنسوات في الهواء وبدأ وكأنّ الهتافات لن تكون لها نهاية، غذّ بعدها الشخص السير بجواده مبتعداً باتجاه المتاريس.

لقد كان جنرال الميليشيا، كولونيل الفرسان والمشاة، أولريك كريستيان جيلدنلو، الأخ غير الشقيق للملك. الحشود تفرقت، أضحت أقلّ فأقلّ حتى لم يتبق منهم بعد هنيهة سوى القليل.

"قل ما تريد قوله، ربما يكون هذا شائناً"، قال جيرت الصباغ، "لكننا هنا سنشّهم رأس من يتحدث عن السلام إلى شظايا وسنصرخ حتى تجشّ أصواتنا على من تسبب في هذه الحرب".

"الله معك، يا جيرت بير، الله معك وأتمنى لك ليلة طيبة!"، قال التاجر على عجل وسارع مبتعداً عنه.

"إنه خائف من قبقاب ميتا"، تمتم الصباغ وفي النهاية توجه هو الآخر صوب البيت.

Twitter: @alqareah

هناك على دكة الدرج جلس يسبر كيم لوحده ممسكاً برأسه الموجع، وبعيداً فوق المتاريس كان الحرس يسيرون بطيئاً جيئة وذهاباً، محدقين من فوق إلى الأرض المعتمة حيث يغرق كل شيء في السكون، سكون مطبق، رغم آلاف الأعداء الذين يقبعون مطوقين المدينة من الخارج.

Twitter: @alqareah

نثار من ضوء برتقالي اللون أطلق عالياً من كتلة ضباب رمادية في الأفق أضاءت الفضاء من حولها لتحترق بعدها في شعلة ذهبية باهتة مائلة إلى الورديّ اتسعت أكثر فأكثر لتشحب فتشحب عالياً باتجاه سحابة هزيلة، طويلة أمسكت بحافتها المتموجة وأحالتها إلى شعاع متقد، ذهبيّ. على ساحل كاليبود كان ثمة ضوء بنفسجي وأحمر ينعكس من سحب الفجر. الندى يتلألأ على العشب المرتفع في المتراس الغربيّ والعصافير تزقزق فوق السطوح في الخلف وفي الحدائق من أمام حتى أنّ الهواء توحّد في زقزقة واحدة مرتعشة. من جهة الحدائق كان ينبعث ضباب خفيف رائق في مويجات صغيرة والأشجار تحني ببطء غصونها المثقلة بالثمار تحت نفحات النسيم الهاب من اللسان البحريّ.

ثلاثة نفخات مكرّرة طويلة من بوق صدحت من جهة البوابة الغربية وردّ عليها من جهات المدينة الأخرى. الحراس الوحيدون على امتداد الخندق شرعوا بمسيرهم نشيط جيئة وذهباً في مراكزهم، هازين عباءاتهم ومعدلين من قلنسواتهم: لقد حان أوان التبديل.

فوق برج الحصن قريباً من شمال البوابة الغربية كان أولريك جيلدنلو يقف ويتطلع إلى النوارس البيض وهي تبحر في الفضاء محلقة عالياً وسافلاً فوق سطح مياه الخندق المتلألئ.

عابر وخفيف، وفي بعض الأحيان واهن وضبابيّ، أحياناً

Twitter: @alqareah

ملوّن بقوّة، متقدة وصافية كالنار كان يطارد ذكريات سنينه العشرين عبر روحه الواحدة تلو الأخرى. حضرت عابقة بشذا الورد الثقيل ورائحة الغابات الخضر النضرة، جاءت في نبرة نداءات الصياد، في نغمات الكمان وحفيف الحرير المتكسّر. حياة الطفولة هناك في هذه المدينة الهولستاينية[1] الطراز ذات السقوف الحمر تمضي بعيداً، لكن مضيئة بالشمس عبر الأفق. أبصر شخص أمه الممشوق، السيدة مارجريثة بابين، كتاب صلواتها الأسود ويديها البيضاوين، رأى وصيفة الغرفة المنمشة ذات الكاحلين النحيفين ووجه معلم المبارزة الورديّ المليء بالبثور وساقيه المقوستين. متنزّه قلعة جوتروب يمتد على وسع النظر والمروج ذات أكوام القش الطازج على ضفاف الخليج، وهناك كان يقف هنريش حارس الطرائد الأخرق الذي كان يستطيع الصياح مثل الديك وبارعاً في تقليد البط والأوزّ. الكنيسة جاءت في عتمتها الخفيفة الغريبة، بأرغنها المتأوّه، بمذبحها الغامض ذي الدرابزين الحديدي ويسوعها النحيف الذي يمسك في يده راية حمراء.

صدحت من ناحية البوابة الغربية إشارة بوق مرة أخرى ضوء الشمس بزغ في ذات الحدة والحرارة مشتتاً كل الضباب ونغمات السديم.

هنالك كان طراد وصيد، حيث أردى أوّل أيّل له، فرسم العجوز فون ديتمر علامة على جبهته بدم الحيوان، فيما كان صبيان الصيادين المساكين ينفخون في أبواقهم صاخبين بملء حناجرهم. بعد ذلك كانت باقة زهر إلى مالينا ابنة آمر القلعة

(١) نسبة إلى مدينة Holstein الألمانية.

Twitter: @alqareah

والاجتماع الخطير مع كبير موظفي البلاط، ومن ثم رحلته إلى الخارج، مع مبارزته الأولى في ذلك الصباح النديّ الغض، مع شلال الرنين المتدفق من قهقهات أنيتا، كع حفلة الرقص عند أحد الأمراء الجرمان والمشوار الوحيد خارج بوابات المدينة حينما شعر رأسه بأول سكر. بعدها جاء الضباب الذهبيّ المشبع برنين ورائحة النبيذ، وكان متواجداً هناك ليشن ولوتة وكان عنق مارثا الناصع وذراع أدلايدا المستديرة. أخيراً جاءت الرحلة إلى كوبنهاغن مع الاستقبال الكريم من قبل سموّ والدنا المبجلّ، واجبات الأيام المملة في حياة البلاط والليالي الصاخبة، حيث النبيذ يتدفق والقبل تثور، متقطعة بضجيج القصف الخلاب والهمسات الرقيقة لمواعيد الغرام في الليل في بستان إيبستروب أو صالات قلعة هيلرود الذهبية.

لكن أوضح من كل ما أبصره كانت عينا صوفيا أورنة السود الحارقتان، والأشدّ إلحاحاً منها كانت ذكرياته حينما يصغي إلى صوتها الشبق الرائع الذي كانت نغماته الخفيضة تسحب المرء به كما لو كان ذراعها البيضاء أو يرتفع كمثل طير محلق يسخر من المرء بزقزقة لعوب خلال طيرانه في الهواء....

خشخشة بين الشجيرات أسفل المتاريس أيقظته من أحلامه.

"من يسير هناك!"، صاح.

"لا أحد سوى دانيال، يا سيد جيلدنلو، دانيال كنوبف"، ردّ عليه ثم برز رجل صغير أعرج من بين الشجيرات وانحنى له.

"ماذا! هل هذا قصير الباع؟ ألف لعنة، ماذا تفعل هنا؟".

نظر الرجل إلى أسفله بحزن.

"دانيال، دانيال!" قال أولريك فريدريك مبتسماً، "أنت لم

Twitter: @alqareah

تخرج سالماً من "الفرن الملتهب" الليلة الماضية. لعلّ مخمر الجعة الألماني جعل حرارة النار قاسية عليك".

زحف الأعرج متسلقاً إلى حافة المتراس. دانيال كنوبف، الذي بسبب قوامه يدعى "قصير الباع" أيضاً، كان أحد كبار التجار الأغنياء لبضع وعشرين سنة، وكان مشهوراً جداً ليس بسبب غناه فقط بل بسبب لسانه الحادّ وبراعته في المبارزة بالسيف. كان كثير الرفقة للنبلاء الشبان، وبتعبير أدق مع حلقة معينة تعرف باسم "lecercle des mourants"، وتتألف بشكل أساسيّ من مجموعة من الشباب المقربين من البلاط. أولريك فريدريك كان روح تلك الحلقة، كما كان الأكثر مرحاً وذكاء فيها، الأسوأ سمعة بينهم لكن كذلك الأكثر إثارة للإعجاب والحسد بينهم.

نصف معلّم ونصف مهرّج عاش دانيال مع هؤلاء البشر. لم يكن يسير معهم في الشوارع العامة أو في بيوت الخاصة، بل كان يلتقيهم في مدرسة المبارزة. في أقبية النبيذ وفي الحانات كان لا غنى عنه. لا أحد كان يتحدث مثله على ذلك النحو العلمي عن لعبة البولنغ أو تدريب الكلاب، أو يتحدث بمثل هذه الإثارة عن أساليب الهجوم المخادع والتفادي في المبارزة. لا أحد يعرف الأنبذة مثلما يعرف هو. كانت لديه نظرياته المستنبطة العميقة عن لعب النرد وفنّ الحب ويمكنه التحدث طويلاً بعمق عن حماقة مزج الفحول المحلية بجياد سالسبيرغر، وهو فوق ذلك يعرف أموراً عن الجميع.

والأكثر من ذلك فقد كان كيّساً وخدوماً لا ينسى على الإطلاق الفرق بينه وبين النبلاء وله مظهر بالغ الروعة والسخف حينما كانوا في حالات ضجرهم أو سكرهم يكسونه بعض الأردية الغريبة. كان

Twitter: @alqareah

يتيح لنفسه أن يهان ويوبَّخ دون أن يصيبه الغضب، وكان عموماً ذا طبيعة خيرة حتى أنه مرات عديدة كان يتدخل لإنهاء جدال كان في طريقه لأن يأخذ منحى خطراً يهدد سلام الصحبة.

كان ذلك أيضاً هو ما جعل ممكناً بالنسبة له أن يرافق هؤلاء الناس، وكان ينبغي أن يرافقهم، لأنها كانت متنفساً له، لأنه كمواطن أعرج كان ينظر إلى النبلاء كأنصاف آلهة، حياتهم فقط، لغتهم الماسونية فقط كانت كلاماً بشرياً، وجودهم يسبح في نهار من الضوء وبحر من العطر فيما الآخرون يجرجرون حيواتهم في عتمة حالكة وهواء خانق. كان يلعن يوم ولادته من العامة باعتبارها أشد الكوارث وطأة عليه حتى من عرجه، وكان ينطوي على نفسه حين يكون وحيداً، ممتلئاً بالمرارة والمقاساة الرهيبة التي تجعله على حافة الجنون.

"وماذا الآن، يا دانيال؟"، قال أولريك فريدريك حينما وصل الرجل الصغير إلى أعلى، "أكيد لم يكن الضباب خفيفاً ليغشي عينيك هذه الليلة طالما وجهت سفينتك إلى هذا الخندق الغربي، أو لعل المدّ قد انحسر هذه الليلة لأني أراك مطمئناً وجافاً مثل سفينة نوح على جبل أرارات؟".

"يا أمير الكناري، أنت تهذر في حديثك إذا كنت تعتقد أني كنت مع سعادتكم تحت الدثار في الليلة الماضية".

"لكن بحق ألف شيطان، ما هي المشكلة إذن؟".

"يا سيد جيلدنلو"، قال دانيال بجدية ونظر إليه بعينين مغرورقتين بالدموع، "أنا إنسان تعيس".

"أنت كلب جوّال! هل هو قارب السردين الذي تخاف أن يستولي عليه السويديون؟ أم أنت تشفق على حالك من

Twitter: @alqareah

كسـود تجارتك وتعتقد أن الزعفران سـيفقد قوته ويدب العفن في فلفلك وشـعير فراديسـك؟ روحك بنصف بنس! وكأن ليس هنالـك لـدى المواطنيـن الطيبيـن مـا يفكـرون غيـر أن تذهـب توافههم إلى هوة الشـيطان، علينا الآن أن ننظر في أمر سـقوط الملك والمملكة!"

"يا سيد جيلدنلو!".

"أوه، إلى هاوية الجحيم بك بعويلك!".

"كلاّ، يا سيد جيلدنلو"، قال دانيال بمهابة متراجعاً خطوة إلى الـوراء، "لأنـي لسـت أشـكو من نقص الغـذاء أو تلف المال أو ما تستطيع شراؤه النقود، أنا لست مكترثاً بقليل أو كثير بالسردين أو الزعفـران، لكـن أطـرد بعيداً مثـل مجذوم أو مدان بجريمة من قبل الضبـاط والأجـلاف فهذا ظلم آثم بحقي، يا سـيد جيلدنلو، لذلك كنت مضطجعاً على الأعشاب طوال الليل مثل كلب أجرب مطرود من البيت، لذلك أنا منقبض ومنطو على نفسـي مثل حيوان زائف يثير الشـفقة واسـتصرخ رب السـماء في حزني وهواني مسائلاً إياه لماذا ينبغي أن أكون وحدي منبوذاً، لماذا ينظر إلى ذراعي كغصن جاف لا فائدة منه في حمل السيف أو البندقية فيما يسلّحون الخدم وصبيان الحرفيين...".

"ولكـن مـن يكـون ذلـك الشـيطان البـرّاق الـذي قـد طردك؟".

"في الواقع، يا سيد جيلدنلو، هرولت إلى المتاريس مثلما هـرول الآخـرون، لكن حينمـا وصلت إلى المجموعة الأولى قالوا لي أن المكان لا يسع أكثر، وحينما ذهبت إلى المجموعة الأخرى سـحروا مني قائلين أنهم ليسـوا سـوى مواطنين بسـطاء ولي سمن

Twitter: @alqareah

مكان هنا للنبلاء وأبناء الخاصة وكلام آخر، كما أن مجموعة أخرى قالوا لي أنهم لا يرغبون بإيواء المعوقين لأنهم يجلبون النحس والرصاص معهم ولا أحد يريد المغامرة بحياته أو يفرط بأعضائه من خلال التواجد برفقة شخص قد وضع الله علامته عليه. بعدها توسلت إلى الجنرال العام أهلفيلدت لكي يعهد إلي بموضع لكنه هزّ رأسه وضحك قائلاً أن الأمور لم تصل إلى هذه المرحلة من السوء تجعلنا نستدعي إلى القوات المسلحة مبتوري الأعضاء الذين سيكونون مشكلة أكثر مما ينفعون".

"لكن لم لم تذهب إلى الضباط الذين تعرفهم؟".

"لقد فعلت يا سيد جيلدنلو، فكرت مباشرة بالحلقة وتحدثت مع اثنين من الفرسان في تشيله، كلاهما كان في الزي الملكيّ ومزركشين بالذهب".

"وهل ساعدوك؟".

"بلى، يا سيد جيلدنلو، لقد ساعداني يا سيد جيلدنلو، عسى أن يلاقوا الله لأجل ذلك! دانيال، قالا لي، اذهب إلى البيت يا دانيال واشبع نزواتك من البرقوق! كانا يعتقدان، كما قالا لي، أن عندي من الكثير من الذوق للقدوم إلى هنا بطلعتي القردية لإضحاكهم. لا بأس أن كانوا يرون فيّ ممثلاً كوميدياً يعتمر القبعة ذات الأجراس في أوقات المرح، لكن حينما يكونون في واجبهم ينبغي أن ألفت انتباههم. والآن يا سيد جيلدنلو هل هذا كلام طيب؟ كلاّ لقد كان إثماً، إثماً عظيماً! حتى وإن كانا قد تصرفا بحرية معي في الحانات لست أفكر بأنني واحد منهم أو أنني سأكون مثلهم حينما يكونون في واجباتهم. لقد كنت وقحاً معهم يا سيد جيلدنلو ولا داعي لأن أفرض نفسي على صحبتهم لأنهم

Twitter: @alqareah

ليسوا بحاجة هنا إلى مهرجين. ذلك ما قالوه لي يا سيد جيلدنلو! وما زلت لا أرغب سوى أن أخاطر بحياتي جنباً إلى جنب مع مواطني المدينة الآخرين".

"أوه، حسناً"، قال أولريك جيلدنلو وتثاءب، "أنا أفهم جيداً أن استبعادك عن كل هذا يغيظك، وأنّه لأمر مزعج أن تنز بالعرق وأنت منكب على مكتبك فيما مستقبل المملكة يقرر هنا فوق المتاريس. اسمع، يجب أن تشارك معنا، لأنّ..."، حدق مستريباً إلى أسفل نحو دانيال، "لعلك لا تنوي خداعنا بحيلة، يا معلم؟".

خبط الرجل الصغير الأرض بقدمه من شدة الغضب، أضحى شاحباً مثل كلس الحائط وصرّ بأسنانه على بعضها.

"حسناً، حسناً"، واصل أولريك جيلدنلو، "أنا أثق بك، لكن لا تتوقع مني أن أثق بكلمتك وكأنها وعد من نبيل، وتذكر بأن أوّل من جلب الازدراء لنفسه هو أنت... هشش!".

فرقعت قذيفة منطلقة من الحصن عند البوابة الشرقية، أول قذيفة انطلقت في هذه الحرب.

انتصب أولريك جيلدنلو، الدم تدفق إلى وجنتيه، عيناه حدقتا بلهفة ووله نحو الدخان الأبيض، وحينما تحدث كان ثمة ارتعاش غريب في صوته.

"دانيال"، قال له، "عند الظهيرة تستطيع أن تقدم نفسك إليّ ولا تفكر بأي شيء مما قلته لك"، ثم مضى بعدها مسرعاً باتجاه المتراس.

تطلع دانيال بإعجاب إليه ثم تحسر بعدها بعمق، جلس على العشب وبكى مثلما يبكي طفل تعيس.

Twitter: @alqareah

كانت فترة ما بعد الظهيرة في اليوم ذاته. رياح شديدة متقطعة كانت تهب عبر شوارع المدينة مثيرة دوّامات من سحائب من نشارة الخشب، أعواد القشّ والغبار حاملة إياها إلى هذا المكان أو ذاك. كانت تقلع قرميد السقوف عن موضعه، تدفع بأعمدة الدخان إلى أسفل المداخن وتسئ السلوك مع لافتات المتاجر.

رايات الصباغين الزرق المعتمة كان تنقذف في الهواء لتهوي في أقواس قاتمة بشكل حلزونيّ يجعلها تلتفّ على عصيها المرتعشة. عجلات الأنوال كانت تتأرجح باضطراب جيئة وذهاباً، الذيول المشعرة تخبط على أبواب الفرّائين ومرايا الزجّاجين المدهشة تعكس تلألؤ الشمس المتأرجح في اضطراب جامح متسابقة مع الأضواء المنعكسة من طسوت الحلاّقين اللامعة، الصقيلة.

في الفناء الخلفي كانت الأبواب والشبابيك تصفق، الدجاج اضطر للزحف باحثاً عن ملاذ خلف البراميل والسقائف، وحتى الخنازي أصابها الاضطراب في زرائبها حينما يندفع صفير الريح عليها مع ضوء الشمس المتسرب من بين مفاصل الأبواب والصدوع.

رغم الريح الحرارة مرتفعة، فقد كانت الريح تعصف بالحرارة.

داخل البيوت جلس الناس لاهثين من شدة الحرّ، أسراب الذباب فقط كانت تئزّ محلقة بحماس في فضاء الغرفة الخانق.

في الشارع كان التواجد لا يطاق ولا الأروقة، لذلك لجأ

Twitter: @alqareah

النـاس الذيـن يمتلكـون حدائق إلى هناك. في الحديقة الكبيرة التي كانت تقع خلف فناء كريستفر أورنة في زقاق فينجورد جلست فتاة شابة في ظلال شجرة كبيرة من أشجار القبقب.

كانت جالسة تخيط.

قوامها كان ممشوقاً ورشيقاً ويكاد يكون نحيلاً، لكن صدرها كان عريضاً وممتلئاً. بشـرتها كانت شـاحبة وأصبحت أكثر شـحوباً تحت شعرها الكثيف الأسود المصفّف بفخامة وعينيها المذعورتين الكبيرتين السـوداوين. الأنف كان حادّاً لكنه لطيفاً، الفم كبير لكنه ليس ملآن وذو ابتسامة واهنة عذبة. الشفتان كانتا قرمزيتين والذقن مدبّباً بعض الشيء، لكنه كان راسخاً ومستديراً بقوّة. لم يكن ملبسها مرتباً: رداء مخمليّ أسود، عتيق مطرز بخيوط ذهبيّة شحب بريقها، وقبعـة لبـاد أخضر جديدة ذات ريشـة كبيـرة وبيضاء كالثلج وحذاء جلديّ ذو خطم متهرّئ أحمر. كانت ثمة ضمادة على شعرها ولم تكن ياقتها ولا يداها الطويلتان البيضاوان نظيفة.

كانـت تلـك الفتـاة صوفيـا، ابنة أخ كريسـتوفر أورنة. والدها، عضـو مجلـس الحكومـة فـي المملكـة برتبة فـارس، يـورن أورنة من ألسـليو، الذي توفي منذ طفولتها، ولحقت به الوالدة، السـيدة مارجريثـة مارسـفين، منذ بضعة سـنين. لذلـك بقيت هي في كنف عمها العجوز، ولأنه كان أرملاً فقد كانت هي، على الأقل إسمياً، الشخص الذي يدير المنزل.

كانـت جالسـة تخيط وتدندن فيمـا تؤرجح أحد أحذيتها على الإيقاع فوق إبهام قدمها.

فـوق رأسـها كانـت تخشـخش وتتمايل أكاليـل الأوراق في تلك الريح العاصفة بصوت شـبيه بخرير الماء. سـيقان شجيرات

Twitter: @alqareah

الخطمية الطوال تؤرجح زهورها البرعمية على الذروة جيئة وذهاباً في أقواس غير مستقرّة وكأنّ جنوناً مستبدّاً قد حلّ بها، فيما تخفي شجيرات الفراولة رؤوسها بجبن مديرة بواطن أوراقها الشاحبة فتتغير ألوانها مع كل نفثة. أوراق جافة تبحر عبر الهواء، العشب يستلقي منبسطاً على الأرض وعلى أوراق شجيرات المتموجة الضوء تتهزهز الزهور الشبيهة بالزبد عالياً وسافلاً في تناوب أبديّ.

كانت هنالك لحظات من الهدوء بدا كل شيء فيها مستقيماً، لكنه مرتعداً من الفزع وفي ترقّب مقطوع الأنفاس، ثم تصفر بعدها الريح في موجة هائجة تجعل من أغصان الحديقة تخشخش وهي تتأرجح بجنون في تناوب لا نهائي من جديد.

"كانت فيليس تجلس في القارب،
فنفخ كوردون في مزماره
عالياً، لتسمعه فيليس
فلم تلمس مجدافها،
فانجرف القارب إلى الرمال،
انجرف القارب...".

من بوابة السقيفة في الجهة الثانية للحديقة أقبل أولريك فريدريك ماشياً. نظرت صوفيا إليه في اندهاش بصمت ثم أطرقت فوق عدة خياطتها وواصلت الدندنة. مضى أولريك متمهلاً غبر الممشى متوقفاً بين الفينة والفينة ليتطلع إلى الزهور متظاهراً بأنه لم ير أحداً في الحديقة. انحرف باتجاه ممر جانبيّ، توقف خلف أكمة ياسمين كبيرة معدلاً من بزّته ونطاقه، رفع القبعة ومرر أصابعه

Twitter: @alqareah

عبر خصلات شعره ومن ثم واصل مسيره.

كان الممشى يستدير على هيئة قوس ليمرّ قابلة صوفيا.

"آه مساء الخير يا آنسة صوفيا"، هتف وكأنه كان متفاجئاً.

"مساء الخير"، ردت بهدوء ولطف، ثبتت إبرتها في قماشة التطريز، ملّست عليها بيدها ومن ثم تطلعت إلى الأعلى مبتسمة وأحنت رأسها، "مرحباً بك يا سيد جيلدنلو!".

"أنا أدعو هذا بالحظ الأعمى، قال لها بالألمانية وانحنى، "لم أكن أتوقع سوى أن أجد عم الآنسة السيد كوسين هنا".

رمقته صوفيا بنظرة خاطفة وابتسمت، "إنه ليس هنا"، قالت ذلك وهي تهزّ برأسها.

"كلاّ"، قال أولريك فريدريك وهو يتطلع إلى أسفل.

بعد برهة صمت زفرت صوفيا قائلة، "يا له من يوم قائظ هذا اليوم!".

"نعم، ولعله ستحدث عاصفة رعدية إذا هدأت الرياح".

"ربما"، قالت صوفيا وهي تحدّق بتأمل نحو المنزل.

"هل سمعت إطلاق نار هذا الصباح؟"، سألها أولريك فريدريك وعدّل من وجهته وكأنه يتهيّأ للمغادرة.

"نعم، نحن ماضون إلى أوقات ثقيلة على القلب في هذا الصيف، يكاد المرء تقريباً أن يصاب البدوار حينما يفكر بكل هذا الخطر على الناس والممتلكات، وحينما يكون للإنسان هذا العدد الكبير من الأقارب والأصدقاء الطيبون مثلما عندي، واشترك كلهم في هذه الحالة التعيسة ومعرضون لفقدان حياتهم أو أطرافهم أو

Twitter: @alqareah

ممتلكاتهم، فإن ذلك أكثر من سبب كاف يجعل من جميع الأفكار الغريبة والمظلمة تراودني".

"كلاّ، يا آنستي اللطيفة صوفيا! بحقّ الإله الحيّ لا تجعلي من دموعك تتساقط، أنت ترسمين كل شيء بألوان معتمة".

Tousiours Mars ne met pas au jour
Des objects de sang et de larrnes,
Mais

ثم أمسك بيدها ووضعها على شفتيه

u... tousiours TEmpire d'amour
Est plein de troubles et d'alarmes.

تطلعت صوفيا ببراءة إليه.

يا لها من رائعة: ليل عينها الحالك المستحوذ، حيث النهار ينسكب في ومضات ضوء لا حصر لها مثل ماسة سوداء تتألق تحت شعاع الشمس، قوس الشفتين الجميلتين الحادّ، الشحوب المتورد للخدين الفخورين الذي يتلاشى بطيئاً احمرار ذهبيّ مثل سحابة تضيئها شمس الصباح، الصدغ الرهيف، العروق الزرق الشبيهة بتويجات الزهور التي يظللها الشعر الفاحم بالغموض....

كانت يدها ترتجف في يده، باردة كقطع مرمر، سحبتها نحوها بلطف وأطرقت بعينيها إلى الأرض. انزلقت قماشة التطريز من حضنها، انحنى أولريك فريدريك إلى الأرض جاثياً على إحدى ركبتيه ليلتقطها وبقي قابعاً في وضع الركوع.

"يا آنسة صوفيا!"، قال لها.

"عزيزي أولريك فريدريك!"، تضرعت إليه، "لا تستاء من

Twitter: @alqareah

التماسي لك أن لا تدع من عاطفة هذه اللحظة الخاطفة أن تغير من طبيعة العلاقة اللطيفة التي كانت قائمة بيننا إلى هذا اليوم، لأنّ ذلك سوف لن يسبب لنا سوى الأمل والمضايقات. انهض من هذا الوضع الأحمق واجلس بشكل مهذب إلى جانبي على التخت لكي يمكننا أن نتحدث في هدوء تام".

"كلاّ، أريد من كتاب قدري أن يختم هذه الساعة"، قال أولريك فريدريك وظلّ قابعاً في مكانه. "أنتِ لا تعرفين سوى القليل عن الحب الكبير المحرق الذي أكنّه لك، وفيما إذا كنت تفكرين بأني سأقنع بمجرد كوني صديقك الحميم. بحق داء المسيح لا تؤمني بهذا المحال! حبي لك جمرة بلا دخان تتقد وتنطفئ طبقاً لأنواء فمك ووفقاً لأهوائك وأنفاسك، بحق الربّ، سواء كانت فاترة أم ساخنة فهي التي تقرّر فيما إذا كان اللهب سينطفئ منها أم ستشتعل إلى الأبد بحرارة وعناد عالية ومشرقة باتجاه السماء".

"لكن يا عزيزي أولريك فريدريك، كن رحيماً واشفق عليّ ولا تجرجرني إلى إغواء ربما لن أقدر على مقاومته، كن على ثقة بأنك قريب على القلب وغال عليّ، لكن لهذا السبب بالذات سأحصن نفسي بأقصى ما أستطيعه حتى لا أضعك في موقف زائف أو أحمق لن يمكنك المحافظة عليه بشرف. أنت أصغر مني تقريباً بست سنين وما تراه الآن ممتعاً في شخصي يمكن للعمر أن يشوهه أو يحيله إلى قبح. نعمّ أنت تبتسم الآن لكني أفترض أنك بعد أن تبلغ الثلاثين ستجد نفسك مرهقاً مع ساحرة شمطاء متغضنة لم تجلب لك من الراحة سوى القليل ولن تكون عوناً لك في رقيّك. لذلك لا أتمنى لك سوى أن تحظى بعروس ملوكية

Twitter: @alqareah

شابة حين تبلغ العشرين مساوية لك في العمر والنسب. من التي يمكنها أن تسندك خيراً من امرأة عريقة المعتد؟ عزيزي أولريك فريدريك، إذا تحدثت مع أقاربك النبلاء سوف يقولون لك الشيء ذاته، لكنهم لن يقولوا لك أنك إذا جلبت لبيتك زوجة نبيلة أكبر سناً منك فستقوم بخنقك حتى الموت بغيرتها المريضة، غيرتها من كل نظرة من نظراتك، نعم، وحتى من أعمق أفكار قلبك! ذلك لأنها تعرف كم تنازلت من أجل نيلها ولهذا فإنها ستبذل غاية جهدها لكي يكون حبها كله لك لا غير. صدقني، ستطوقك بحبها الوثنيّ كقفص من حديد وإن شعرت بأنك تتوق للخروج منه لوهلة سيصيبها الغم ليل نهار وتملأ حياتك بالمرارة كل ساعة بأحزانها اليائسة".

نهضت ومدت يدها له. "وداعاً، أولريك فريدريك، فراقنا مرير كالموت، بكن بعد سنين عديدة حينما أضحى عجوزاً عانسة، أو زوجة في منتصف العمر لرجل كهل ستتيقن أن صوفيا أورنة كانت على حق. فلتحمك يد الربّ. هل تتذكر ما ورد في الرواية الإسبانية عن تلك البقلة الهنديّة التي كانت تستند في شبابها على شجرة وبقيت تلتفّ عليها فترة طويلة بعد موت الشجرة وذبولها إلى أن سقطت الشجرة ولم يبق شيء تستند عليه. ثق يا أولريك فريدريك أن روحي ستظلّ هكذا تسندك وتعينك فترة طويلة بعد أن تذبل وتتلاشى".

حدّقت مباشرة في عينيه ثم استدارت متأهبة للمغادرة لكن أولريك فريدريك بقي ممسكاً يدها بقوة.

"هل تريدين أن تجعلينني غاضباً بكل معنى الكلمة! اسمعي إذن ما أقوله لك، الآن بعد أن عرفت أنك تحبينني لا توجد قوة

Twitter: @alqareah

على الأرض يمكنها أن تفرق بيننا. ألا تعرفين أن من السيئ الحديث عما يرغبه أنا أو أنت. حين يكون دمي ثملاً بكِ فإنني أتجرّد من كل قواي. أنا مسكون بك، وحتى لو أشحت بقلبك عني في هذه الساعة فستكونين لي أيضاً، بالرغم منك وبالرغم مني. أنا أحبك حبّاً يشبه البغض، لست أفكر بسعادتك ولن يؤثر عليّ أن كنت سعيدة أم تعيسة، فقط أن أكون في سعادتك، أن أكون فقط في آلامك، أن أكون فقط....".

سحبها إليه بعنف وضغطها باتجاه صدره.

بطيئاً رفعت وجهها نحوه ونظرت طويلاً إليه بعينين مغرورقتين، وابتسمت بعدها: "كما تشاء يا أولريك فريدريك"، ثم قبلته برغبة مرات عديدة تلو الأخرى.

بعدها بثلاثة أسابيع احتفل بخطوبتهما في أبهة صاخبة. منح الملك موافقته بسرور لأن ذلك سيضع حدًّا لحياة العزوبية الماجنة التي كان يعيشها أولريك فريدريك.

Twitter: @alqareah

بعد الهجومين الرئيسيين على العدو في الثاني من سبتمبر والعشرين من أكتوبر اكتظت المدينة بصيت أولريك فريدريك، أو "الكولونيل شيطان" كما كان المواطنون يدعونه. أضحى اسمه على كل لسان، ليس من طفل في كوبنهاغن لا يعرف "بيلارينا"، فرسه ذات الجوارب البيض. وحين تخب به مجتازاً تتطلع عذارى المدينة بإعجاب إلى قوامه الرشيق الممشوق وهو يخطر مجتازاً بمعطف الفرسان الأزرق، الرحب ذي الكمين الأبيضين الفضفاضين، بوشاحه الأحمر ونجاد السيف العريض المتدلي من حزامه، وكنّ فخوارت حين يلمحن وجهه الوسيم وهو يومئ إليهن بهزّة رأس أو حين يحظين بنظرة وقحة من ذلك الجندي الجسور. نعم، حتى آباء العوائل الرصينة وربّات بيوتهم البدينات ذوات القلنسوات المجعدة الذين على علم بمقدار فحشه ويعرفون جميع قصص نزواته، كانوا يهزون رؤوسهم لبعضهم البعض مسرورين حينما يلاقونه، متفكّرين في ذلك السؤال الصعب عن المصير الذي كانت ستؤول إليه المدينة لو لم يكن هو موجوداً.

لم يكن مستغرباً أن يؤلهه الجنود ورجال المتاريس، فقد ورث عن والده، الملك كريستيان، موهبة اجتذاب قلوب الشعب. لكن أيضاً هنالك ميزات أخرى ورثها عنه، فقد أورثه أبوه كلاً من حدّة طبعه وتطرفه، لكن أيضاً قسماً من مواهبه، سرعة بديهته ونظرته الشاملة. كان صريحاً جداً، السنوات العديدة من الإقامة في

Twitter: @alqareah

بلاطات أوربا لم تجعل منه رجل بلاط، نعم، بل ولا حتى مهذّباً. في علاقاته اليومية كان عدوانياً صادماً وأثناء الخدمة لا يفتح فمه أبداً من دون أني يلعن ويشتم مثل بحّار وضيع.

لكنّه كان جنديّاً حقيقياً رغم حداثة سنة. لم يكن يناهز سوى الثامنة والعشرين من العمر حينما نظم دفاعات المدينة وقاد هجمات خطرة، لكن مهمّة ببصيرة نافذة ونضج كبير في الخطط لا يمكن أن تكون في أيدي أفضل من يديه من بين جميع الرجال المحيطين بكريستيان الثالث.

لذلك فقد كان من الإنصاف أن يكسف اسمه الأسماء الأخرى وأن الشعراء في سرديّاتهم المنظومة عن القتال قد نادوه: "أنت جيلدنلو المتوّج بالنصر، أنت مخلّص الدنمارك من الأعداء"، أو يحيونه بعبارات مثل: "تحية لك، تحية لك يا مارس الشمال، يا داود الدنمارك الباسل"، متمنين له حياة خصبة كقرن الخصب، أو قرن خصب مليئة بالإشادة والمجد والعافية، بالنعمة والسعادة. وكان من الطبيعيّ أيضاً أن العديد من الصلوات الهادئة تنتهي كذلك بابتهال إلى الربّ أن يحفظ السيد أولريك فريدريك في المستقبل. نعم، وكان ثمة أرواح ورعة التمست من الربّ أن يقود خطاه بعيداً عن مزالق طرق الخطيئة وأن ينقلب قلبه على كل ما هو شرير ليتتوج بإكليل الفضيلة والحقيقة المضيء، وأن ينال الذي حظي بمثل هذا المجد في هذا العالم بالمجد الحقيقي في الحياة السرمدية.

مارية غروبة كانت منشغلة كثيراً بالتفكير في قريب خالتها هذا. وصادف أنها لم تلتق به أبداً سواء عند السيدة ريجيتز أو في مكان آخر، فقط في الشارع صادف وأن رأته، مرة واحدة عند

Twitter: @alqareah

الغسق، حينما أشارت إليه لوسيا هناك.

الجميع يتحدث عنه، يخبرونها تقريباً كل يوم بحكاية جديدة عن بسالته. سمعت كما وقرأت أنه كان بطلاً، وأنّ الغمغمة المهلّلة التي سرت عبر الحشود في الشارع، حينما اجتاز الطريق، طبعت أثراً لا يمحى عليها.

الاسم الكبير، الذي كان اسم البطل، رفعه تماماً عن مصاف البشر العاديين. لم تكن تفكر إطلاقاً أن الأبطال يشابهون الناس العاديين. الملك الإسكندر المقدوني، هولجر الدنماركي، الفارس بايارد وبقية الأبطال العظماء، البعيدين، المتألقين، الذي كانوا أقرب للكائنات الخرافية منها إلى البشر. مثلما عندما كانت أصغر، لم تكن لتصدق أن أحداً يمكنه أن يكتب بمثل أناقة كرّاسة الخطّ، ولم يحدث أن خطر ببالها أن أحداً يمكنه أن يصل إلى مرتبة البطل. الأبطال شيء مضى وقته، شيء صار ينتمي إلى الماضي. لكن أن يمكن للمرء أن يلتقي ببطل، بطل حقيقي، يلاقيه راكباً في شارع فيرويستغيذه الكبير، فهذا أمر لم تحلم به أبداً. بدت الحياة مختلفة فجأة، ثمة شيء جديد غير ما يجري في الحياة اليومية الرتيبة، المملكة العظيمة، الجميلة، الملوّنة التي قرأت عنها في كتب القصص والأغاني أمكنها جميعاً أن تتجسد أمام ناظريها. ثمة إذن شيء يمكن للمرء أن يتوق إليه بكل جوارحه وروحه. كل هذه الكلمات التي يمتلئ بها الناس والكتب كانت تعني شيئاً، كانت تحمل مغزى ما، كان ثمة معنى في أحلامها المبهمة وتوقها، لم يكن شيئاً خصّت به وحدها، الناس الناضجون كانوا يؤمنون به. الحياة ثريّة، ثرية بشكل مشرق.

لم تكن تعرف سوى أنها كانت تحدس أن ذلك كان حقيقة،

Twitter: @alqareah

لكن من دون أن ترى أو تشعر أنها كانت كذلك. لقد كان الشيء الملموس بالنسبة لها، رهانها الوحيد. كانت جميع أفكارها وأحلامها تدور بشكل لا نهائيّ ومطّرد حوله، لذلك كانت تطير مرّات عدة إلى النافذة حينما تسمع سنابك الخيول على بلاط الجادة، وكانت غالباً ما تستحث لوسيا المستعدة لكي تجول معها حول القلعة، لكنهما لم تريانه أبداً.

ثم حلت الأيام الأخيرة من أكتوبر. بعد منتصف الظهيرة، حينما كانت جالسة تظفر وشيعتها في تجويف أحد نوافذ الردهة الطويلة، حيث يقع الموقد. كانت السيدة ريجيتز جالسة عند الموقد والى جانبها ثمة مجمرة صغيرة وتلتقط بين الفينة والفينة قليلاً من الزهورات الجافة ولحاء القرفة من كيس كانت تمسك به في حجرها وتضعها على الجمر. الهواء في الردهة المنخفضة كان ساخناً وخانقاً وحلواً، الستارة المطرزة بالزهور القاتمة لم تكن تسرب سوى القليل من الضوء إلى الداخل. من الحجرة المجاورة كان يسمع أزيز دولاب النول، فيما كانت السيدة ريتجيز تميل برأسها من النعاس وهي غاطسة في كرسيها الوثير.

كانت ماريا غروبة منهكة من شدة الحرّ. أرادت تبريد خديها الساخنين على لوح زجاج النافذة النديّ الصغير ورمقت الجادة بنظرة سريعة حيث طبقة خفيفة من الثلج الساقط حديثاً جعلت من الهواء ضوءاً ساطعاً، ثم عادت وجلست من جديد في الردهة التي تضاعفت فيها العتمة والانقباض. فجأة ولج أولريك كريستيان من الباب بسرعة جعلت من السيدة ريجيتز تجفل. لم يلحظ ماريا واتخذ مقعده سريعاً إلى جانب الموقد. بعدها بضع كلمات اعتذار لعدم زيارتهم منذ مدة طويلة قال بأنه متعب، فجلس منحياً إلى أمام

Twitter: @alqareah

المقعد ويده تحت خده دون أن ينبس ببنت شفة فيما كان يصغي بوهن إلى حديث السيدة ريجيتز المتحمس.

شحب وجه ماريا غروبة شاحبة من الإثارة حين لمحته يلج إلى الداخل، أطبقت عينيها للحظة وكأنها مصابة بالدوار ثم احمرّت وجنتاها بشدّة وضاق تنفسها. شعرت وكأن الأرضية قد انخسفت من تحتها أو أنّ الردهة كلها بكراسيها، طاولاتها وبشرها قد هوت خلال الفضاء، وأن كل ما كان موجوداً هناك بدا مجسّداً ومحدّداً بغرابة ثم أضحى مضطرباً حتى وكأنها يصعب عليها إمساكه بنظراتها فضلاً على أن كل شيء بدا جديداً وغريباً على عينيها. مع ذلك، قبل أن يستمر ذلك طويلاً تحاملت على نفسها. ها هو هنا إذن. تمنّت لو أنها كانت بعيدة أو أنها كانت فقط في حجرتها، حجرتها الصغيرة الهادئة، كانت مذعورة للغاية وأمكنها أن تشعر بيديها وهما ترتجفان. لو أنه فقط لا يراها!

انكمشت على نفسها صامتة في تجويف النافذة وسمّرت أوّل نظرة راسخة على ضيف خالتها.

أهكذا كان يبدو! ليس أضخم، أضخم بكثير؟ وعيناه ليستا بسوداوين متألقتين إطلاقاً، زرقاوين كانتا، عينان ذاتا ازرقاق لطيف، لكن حزينتان، إنها لم تفكر بهذا إطلاقاً. كان شاحباً ويبدو كأنه متأسفاً على شيء، الآن هو يبتسم، لكنه ليس سعيداً حقاً، أسنانه في غاية البياض وفمه كان جميلاً، بالغ اللطف والصغر.

بقدر ما كانت تتطلع كانت وسامته تزداد في ناظريها، ثم أخذت تتساءل فيما إذا كانت تفكر قبلاً بأنه كان أكبر حجماً أو مختلفاً عما هو عليه. نسيت خوفها تماماً ولم تعد تفكر سوى بالمديح والصيت التي كانت تسمعهما عنه. طوال الوقت الذي

Twitter: @alqareah

كانت تتطلع إليه تتخيله على رأس عساكره يعصف متقدماً تحت هتاف الجماهير، وكل شيء يتقهقر أمامه أو ينطرح جانباً مثلما تنطرح الأمواج حينما تثب مزبدة على قدوم مركب شراعيّ عريض. المدافع تهدر، السيوف تومض والرصاص يئزّ عبر سحب الدخان المعتمة، لكنه يثب متقدماً، جريئاً وشامخاً، وفي ركابه النصر معقود، مثلما هو مكتوب في الوقائع التي قرأتها.

شعّت عينها بالإعجاب والحماس وهي تتطلع إليه.

بحركة مفاجئة قنص نظرتها. أدار رأسه جانباً، خفض نظرته وعانى صعوبة في كتم ابتسامة منتصرة، نهض بعدها وتظاهر بأنه لاحظ وجود ماريا غروبة لأول مرة.

قالت السيدة ريجتيز أنها ابنة أخيها الصغير فانحت له ماريا بكياسة.

بقي أولريك كريستيان منذهلاً، كما أنه كان خائباً قليلاً لاكتشافه أن تلك العينين اللتين كانتا تتطلعان إليه بهذا الشكل تعودان لطفلة صغيرة.

"عزيزتي"، قالها بمسحة تهكّم وخفض نظرته ليتطلع إلى عملها، "أنتِ أفضل ربة بيت من ناحية العمل بتكتم وهدوء عرفتها بحياتي، لم أسمع أدنى صوت من مكوكك طوال الوقت الذي كنت فيه هنا".

"آه!"، قالت ماريا التي فهمت قصده بوضوح، "حينما رأيتك أيها القائد العام..."، ثم دفعت بوسادة تخريمها الثقيلة في جوف النافذة، "خطر ببالي أن الوقت مناسب للاهتمام بالتضميد أكثر من تخريم القلانس".

"حقيقة، أنا أعرف أن القلانس رائعة سواء في وقت الحرب

Twitter: @alqareah

أم غيره"، قال ذلك ثم تطلع إليها.

"نعم، لكن من يهتم بها في أوقات مثل هذه!".

"كثيرون"، قال أولريك كريستيان الذي بدأ يتسلّى بجديتها، "وأنا واحد منهم".

"بلى، أنا أفهم"، أجابت ماريا ونظرت بجدية نحوه، "أنّ من تتحدث إليها ليست سوى طفلة صغيرة"، انحنت برسميّة له وتناولت قماشة تطريزها.

"تمهلي قليلاً يا آنستي الصغيرة!".

أوه كلا، لا أريد أن أضايقك أكثر".

"اسمعي الآن"، هتف وأمسك بقوة بمعصميها وجذبها إليه عبر طاولة التطريز، "أنتِ، وحقّ الله، شخص صعب، لكن"، همس لها، "إذا حيّاني أحد ما بمثل نظرتك التي كنت تتطلعين بها إليّ قبل قليل فإنني لن أدعها تودعني بمثل هذا الوداع الشحيح، لذلك.. قبّليني الآن!".

ضغطت ماريا بشفتيها المرتجفتين على شفتيه وعيناها مغرورقتان بالدموع، أفلت يديها فانتكست فوق الطاولة ورأسها يستريح على ذراعيها.

داخت ماريا تماماً. تملكها في ذلك اليوم والذي تلاه شعور بالخواء والعبودية، شعور بأنها لم تعد حرّة. لقد كانت هي من داست القدم على رقبتها، هي التي ديست في التراب ولم تستطع النهوض من جديد. لكن لم يكن هنالك شعور بالمرارة، ما من تحدّ ولا رغبة في الانتقام. هدوء غريب حلّ في ثنايا روحها، ما من ضباب محلّق أحلام مشوَّشة ولا ثمة توق. مشاعرها نحو أولريك كريستيان لا تحديد لها، إنها تعرف فقط بأنه إذا قال لها

Twitter: @alqareah

أقبلي، فعليها أن تقبل، وإن قال لها اذهبي فعليها أن تبعد نفسها. لم تكن تفهم ذلك، لكن الحال كان هكذا، وسيظل كما هو عليه الآن ولن يكون في الإمكان تغييره.

طرزت وخاطت طوال اليوم بأناة نادرة وكانت،وفيما هي تعمل، تدندن جميع الأغاني الحزينة التي عرفتها عن زهور الحب التي تشحب ألوانها ولا تتفتح أبداً من جديد، عن الشاب الذي يضطرّ إلى هجر حبيبته ويرحل إلى البلاد الغريبة حيث أبداً، أبداً لن يعود منها من جديد. عن السجين الحبيس في البرج المعتم لوقت موحش طويل وكيف شهد أولاً موت صقره النبيل، ثم موت كلبه الأمين، وأخيراً حصانه الرائع، فيما كانت زوجته الخائنة مالفينا تعيش بمتعة ومرح غير حزينة من أجله. الأغاني الحزينة التي غنتها والعديد غيرها كانت تتنهّد بينها أحياناً وأحياناً أخرى تكون على وشك البكاء، حتى أن لوسيا اعتقدت بأنها مريضة وطلبت منها أن تضع أوراق الفسُلّيون في جوربيها.

حينما قدم أولريك كريستيان بعد بضعة أيام عليهم وتحدّث برقة ولطف معها تظاهرت بأنه لم يكن ثمة شيء بينهما، لكنها تطلعت بفضول طفل إلى يديه البيضاوين اللتين قبضتها بعنف عليها، ثم تساءلت عما يمكن أن يكون في عينه وصوته ليروّعها بهذا الشكل، والفم ذو الشاربين الرفيعين المتدليين استرقت إليه النظر أيضاً، لكن في خلسة ورعدة رعب خفيّة.

في الأوقات اللاحقة صار يأتي تقريباً كل يوم أو يومين وتصير ماريا غروبة مشغولة به أكثر فأكثر. حينما يكون بعيداً يبدو المنزل القديم مقفراً أمام ناظريها ولا حياة فيه، فتتوق إليه كما يتوق السهران لطلوع النهار، لكنه حينما يجيء تملؤها السعادة

Twitter: @alqareah

والانطلاق بصورة لم تشعر بها من قبل، كانت تشعر بنفسها دائماً غير واثقة بشأنه.

ذات ليلة حلمت أنها رأته يمرق ممتطياً حصانه عبر شارع مليء بالحشود مثلما رأته في المساء الأول، لكن لم يكن هنالك هتافات والوجوه كلها كانت باردة وغير مكترثة لمرآه فأصابها الخوف من الصمت ولم تجرؤ على الابتسامة له، بل أخفت نفسها خلف الحشد، وحينما تطلع إلى ما حوله بنظرة متسائلة، غريبة وكئيبة وثبت عليها تلك النظرة، فشقت هي طريقها عبر الحشد، ارتمت مباشرة أمام حصانه الذي وضع حوافره الحديدية على عنقها...

استيقظت، جلست في السرير وبقيت تتطلع مذهولة في الحجرة الباردة المضاءة بشعاع القمر، لم يكن سوى حلم! ثم تنهدت، ليتها تستطيع أن تريه إلى مدى تحبه. نعم، هكذا هو الأمر، لم تكن تعرف قبلاً أنها مغرمة به. بدا وكأنها كانت ترقد وسط النار وهي تفكر بهذا، واللهيب يضطرم أمام ناظريها فيما كانت كل نبضات قلبها تقرع، تقرع، تقرع. إنها تحبه، كم هو مدهش أن تقول ذلك لنفسها، أنها تحبه! لكم هي كلمات رائعة، فخورة، حقيقية جداً، لكن خيالية جداً كذلك. يا إلهي، ما الذي يمكن أن تفعله، إنها تحبه... واغرورقت عيناها بالدموع من الشفقة على نفسها، لكن على كل حال! أخفت نفسها تحت دثار السرير الدافئ، الناعم من جديد، إنه لأمر رائع أن تستلقي وتفكر به هكذا وبحبها، حبها الكبير، الكبير.

في المرة التالية التي رأت فيها أولريك كريستيان لم يكن هنالك شعور بعدم الثقة من ناحيتها، بالعكس، فالسرّ الذي تحمله

Twitter: @alqareah

جعل منها ذات شأن في ناظريها، والخوف من إفشائه جعلها مخلوقاً أكثر سيطرة على النفس، ناضجاً تقريباً. مرت أوقات مليئة بالأحلام ومليئة بالتوق، أوقات مدهشة ورائعة، أو بالأحرى، أو لم يكن رائعاً، حين يغادر أولريك كريستيان، أن ترمي إليه بمئات من القبل بأصابعها وهي مختبئة منه ومن الآخرين، أو حين يجيء، أن تتخيل كيف سيأخذها صديقها الحبيب بالأحضان، كيف يناديها بألطف الأسماء التي يمكن أن تخطر على البال، كيف يجلس إلى جانبها وهما يحدقان في عينيّ بعضهما بجنوح طويلاً، وكيف تدع يدها تنزلق عبر خصلات شعره الناعم، البنّي، المجعّد؟ وما المانع في عدم حدوث كل هذا، بالعكس، كانت وجنتاها تتوردان تماماً حينما تفكر بأنّ شيئاً من هذا القبيل يمكن أن يحدث فعلاً.

كانت أياماً رائعة، سعيدة، لكن في أواخر نوفمبر مرض أولريك كريستيان بشكل خطير. صحته التي كانت منهارة منذ مدة طويلة بسبب الإسراف من جميع النواحي، لم يعد بإمكانها تحمل السهر والعمل المجهد المرتبط بواجبه، أو لربما كان إسرافاً جديداً جعل من القوس يتوتر إلى أقصاه. داء متلف، مؤلم مصاحب بهذيان محموم واضطراب متواصل دبّ في جسده، وخلال فترة قصيرة حدث انتكاس خطير حتى لم يشك أحد بأن اسم هذا المرض هو: الموت.

Twitter: @alqareah

كان ذلك في الحادي عشر من ديسمبر.

فـي الغرفـة الكبيـرة، المصبوغة بلون بنّي كالجلد والتي تؤدي إلى غرفة علاج أولريك كريستيان كان قسيس العائلة الملكة هانس ديدريشسـن بارتكير يسـير بقلق جيئة وذهاباً فوق الأرضية المغطاة بالقـش المضفـور بدقـة. توقف ذاهلاً أمام اللوحـات المعلقة على الجـدار وتمعّـن باهتمـام واضـح الحوريات الممتلئـات، العاريات اللواتـي كـن مضطجعـات تحت ظلال الأشـجار المعتمـة، هنالك كانت سـوزانا تسـتحم والحلوة جوديث ذات الذراعين المكتنزين، العاريـيـن، لكنهمـا لـم تسـتحوذا عليـه طويـلاً. مضى نحـو النافذة وترك نظرته القلقة تجول من السماء الرمادية البياض إلى السقوف النحاسية، الرطبة، اللامعة ومن ثم إلى ركام الثلج المتسخ، الممتد على فناء القلعة، ثم واصل بعدها سيره القلق، مغمغماً ومومئاً.

فكّر فيما إذا كان الباب مفتوحاً، توقف فجأة وأرهف السمع: كلاّ! سحب نفساً عميقاً وترك لجسده أن يتهاوى على أحد الكراسي وهنالك جلس متنهّداً وهو يفرك راحتيه على بعضهما البعض. حين انفتـح البـاب فعلاً برزت منه سـيدة في منتصـف العمر تعتمر قبّعة كبيرة موشاة من قماش منقط بالأحمر وأشارت باحتراس إليه.

تمالك القس نفسـه، وضع كتاب الصلاة تحت ذراعه، مسّـد على ردائه الكهنوتيّ واندفع داخلاً إلى غرفة المريض.

كانـت الصالـة الكبيـرة، الإهليليجيّة مكسـوة من الأرضية إلى

Twitter: @alqareah

السقف بلوح خشبيّ داكن يبدو في منتصفه القاتم ثمة سلسلة بشعة من رؤوس الأتراك والزنوج الذين يضحكون بأسنان بيض مرسومة بألوان مختلفة. الستارة الرقيقة، الزرقاء، التي كانت مسدلة على النافذة الضيقة، العميقة حتى نهايتها جعلت من الجزء الأسفل للردهة غارقاً في شبه عتمة عميقة، فيما كان الضوء يلعب حرّاً على اللوحة المرسومة على السقف، حيث الخيول، الأسلحة والأطراف العارية مختلطة في تشوّش لا فكاك منه، وعلى فسطاط السرير السماويّ الذي تتدلى منه ستائر من الإستبرق الأصفر موشّاة بالفضّة.

هواء ساخن مشحون بروائح المراهم والأدوية صفع القس حالما دخل من الباب وكاد أن يقطع أنفاسه. تشبّث بكرسيّ واستند عليه وهو يرى في غمرة دواره أن كل شيء يدور حوله، الطاولة بقنانيها، القوارير والدوارق، النافذة، الممرضة مع قبعتها، السرير مع المريض المضطجع عليه، محفّة سلاح والباب المفتوح المفضي إلى الغرفة المجاورة حيث النار تضطرم في الموقد.

"سلام الله عليك، يا سيدي!"، حيّاه بصوت مرتعش حالما تعافى من دواره الخاطف.

"ماذا تبغي بحقّ الجحيم؟"، صرخ المريض محاولاً أن ينهض نفسه من السرير.

"على رسلك، يا سيدي الكريم، على رسلك"، هدّأته الممرضة، آنا الإسكافية، ومضت باتجاه السرير وملّست بلطف دثار السرير، "إنه كاهن الاعتراف الموقّر لصاحب الجلالة، أرسل ليقدم لكم القربان المقدّس".

"سيدي الكريم! حضرة النبيل جيلدنلو!"، شرع القسّ بطقسه

Twitter: @alqareah

فيما كان يدنو من السرير، "أعرف جيداً بأنك لم تكن ضمن البسطاء الحكماء أو الجماعة الحكيمة التي جعلت من كلمة الربّ عكّازهم الراسخ الذي يستندون عليه، ومن بيته ملاذاً دائماً، ورغم أن الربّ الذي يجعل من مدافع رعده تهدر هو ذات الربّ الذي يمسك نخلة النصر الذهبيّة أو سروة الهزيمة الدامية بيده، لذلك على الإنسان أن يدرك، رغم أن ذلك لا يبرّؤه، أن من حتم عليه واجبه قيادة أناس عديدين وأصبح مثالاً ببسالته يمكن أن ينسى للحظة بأننا لا شيء، مثل قصبة تهتزّ في الريح. نعم، مثل براعم لا حول لها ولا قوة بين يدي الخالق العظيمتين، ولعلك أفكار سوء راودتك: هذا ما أنجزته، هذه هي الثمرة التي هيّأتها للنضج والكمال. لكن، يا سيدّي الغالي! أنت تضطجع هنا الآن في سرير ألمك القاسي، لكن إلهنا الرحيم، الذي هو إله المحبّة، يضيء الآن إدراكك ويقلب قلبك ليجعلك، بالخوف والرعب، تعترف بخطاياك غير المتطهّرة حتى تستطيع،بإيمانٍ، قبول النعمة والمغفرة من كلتا يديه المحبّتين الممدودتين نحوك. ديدان الندم ذوات الأسنان الحادّة...".

"أُرسموا علامة الصليب أمامي وخلفي، ندم وتوبة، ترك الخطايا والحياة الأبدية"، هتف أولريك كريستيان مستهزئاً وقعد منتصباً في سريره، "هل تعتقد أيها الأصلع البغيض الوجه، هل تعتقد بأنّ على المرء، لمجرد تلف عظام جسده بسبب الرصاص والشظايا، أن يكون أكثر رضوخاً لتقبّل هذر كاهنه؟".

"يا سيدي الأكرم، أنت تسيء بصورة محزنة استعمال الامتياز الذي تمنحك إياه رتبتك العالية، علاوة على مرضك المؤسف، في توجيه توبيخ لا ضرورة له إلى خادم مسكين للكنيسة لا يقوم سوى بما يمليه عليه واجبه محاولاً توجيه تفكيرك إلى الوجهة الضروريّة

Twitter: @alqareah

التي لا غنى عنها. آه يا سيدي السامي، لا ينفع رفس المنخس إلاّ قليلًا! ألم يعلمك هذا الداء المضوي الذي ضرب أعضاءك أن لا أحد يمكنه الإفلات من قصاص الربّ وأن ضربات السماء القاصمة تهوي على رأس الرفيع كما على الوضيع؟".

قاطعه أولريك كريستيان ضاحكاً: "أنتَ تتحدث، فليتلفني الجحيم، مثل تلميذ أخرق! هذا الداء الذي ينخر عظامي جلبته عن استحقاق لنفسي بحق وحقيق، ولذلك إذا كنت تعتقد أن السماء أو الجحيم تصيبان الناس بمثل هذا المرض فدعني أقل لك أنّ المرء يصاب به من متع الليل ومعاشرة النساء ومن مثل هذا القبيل، صدقني. ثق بكلامي، والآن جرجر ساقيك المتعلمين إلى خارج هذه الحجرة بأسرع ما يمكن، وإلاّ فأنني سوف...".

عندها أصابته النوبة وفيما كان يتلوّى ويعول تحت وطأة آلام شديدة، جدّف ولعن بكفر مروّع حتى أن وجه القسيس أضحى شاحباً من الاستياء والرعب فابتهل إلى الربّ لأن يمنحه القوّة والإيمان الراسخ لعله يجعل من هذه الروح المتصلبة مسلمة بحقيقة الدين والعزاء السعيد. وحين هدأت نوبة المريض شرع القس بتوسلاته من جديد: "سيدي، يا سيدي! بصوت باكٍ أناديك وأتضرّع إليك أن تدع عنك مثل هذه اللعنات البغيضة والتجديف، تذكّر أن الفأس موضوعة على أصل الشجرة، وسوف تُقطع وتُلقى في النار إذا واصلت عقمها ولم تتفتح زهورها أو تثمر في الساعة الحادية عشر! دع عنك مقاومتك المهلكة وارمِ نفسك مليئاً بالندم وصلّ عند أقدام مخلّصنا...".

حينما شرع القس بحديثه كان أولريك كريستيان قد جلس مستنداً على رأس السرير، أشار بعدها مهدّداً نحو الباب وصاح

Twitter: @alqareah

المـرة تلـو الأخـرى: "أغرب، أيها الكاهـن! أغرب عن وجهي! لا يمكنني أن أطيقك أكثر!".

"ويا مولاي العزيز"، واصل القسّ، "ولربما أنت تقسـو على نفسـك لأنـك تشـك فـي إمكانية الحصول على نعمـة المغفرة لأن جبـال خطايـاك قـد تناهت في مداها، إذن فاسـمع بابتهاج أنّ نعمة الرب لا تنضب...".

"يا كلب الكاهن المجنون، انصرف الآن!"، هسهس أولريك كريستيان من بين أسنانه المطبقة، "واحد - اثنان -!".

"فـإذا كانـت خطايـاك حمـراً مثل الدم، نعـم، مثل الأرجوان التيرانيّ...".

"أشح وجهك!".

"فإنه سيجعلهن بيضاً مثل جبال لبنان...".

"حالاً بحق القديس شيطان وجميع ملائكته!"، زار أولريك كريستيان وهو يقفز عن السرير، خطف حساماً ذي حدّين من محفّة السلاح وطعن به بشدّه باتجاه الكاهن، لكن هذا الأخير أنقذ نفسه على عجل وولج إلى الحجرة المجاورة موصداً الباب خلفه. هرول أولريك كريستيان حانقاً نحو الباب وانهار بعدها خائر القوى فوق الأرضية فتوجب رفعه إلى السرير لكنه ظلّ محتفظاً بسيفه معه.

بقيـة الضحـى مـرت فـي هـدوء ناعـس، انتابتـه الأوجاع من جديـد، والوهـن الـذي أصابه وجد فيه الراحة والسـلوان. اضطجع محدّقاً في نقاط الضوء الصغيرة التي كانت تنفذ عبر خيوط الستارة المسـدلة على النافذة وأحصى الحلقات السـود في شـبيكة النافذة. بين آونة وأخرى كان يبتسـم بسـرور حينما يفكّر بمطاردة القسـيس ولا يتكـدر مزاجـه حينمـا تطلـب منه آنا الإسـكافية أن يطبق عينيه

Twitter: @alqareah

ويحاول أن ينام.

بعد الظهيرة بقليل سمعت طرقات علية على الباب بعدها مباشرة ولج قسّ كنيسة الثالوث، الناظر ينس جوستنسن، إلى الداخل. الرجل الضخم، البدين، ذو القسمات الحادّة، القاسية، والشعر الأسود القصير والعينين الواسعتين العميقتين وتوجه مباشرة إلى السرير وهتف محيياً: طاب يومك.

ما أن رأى أولريك كريستيان أن ثمة كاهن يقف عند سريره من جديد حتى انتابه سورة من الغضب جعلت جميع أطرافه ترتعد وانطلقت من فمه كلمات التجديف والتوبيخ على القس، على آنا الإسكافية التي لم تصن سلامه على نحو أفضل، وعلى الربّ في السماء وجميع ما هو مقدس.

"اصمت يا ابن الإنسان!"، هدر السيد ينس، "هل هذا فم شخص يتقدم به من وضع قدمه في القبر؟ عليك بالأحرى أن تستخدم آخر ومضات مشعل الحياة المتبقية فيك لإحلال السلام بينك وبين ربّنا بدلاً من أن إثارة الخصومات مع البشر. مثلك مثل المجرمين والمشاغبين حينما يسقط الحكم عليهم ويرون أن لا يمكنهم الإفلات من الكمّاشة ولا الفأس التي تمسك بهم في الحيطة، لذلك تراهم وهم في غمرة ضعفهم البائس يهددون ويجدفون ضد الربّ إلهنا بكلمات قذرة هوجاء، لأنهم بذلك يشجّعون أنفسهم ومن ثم يحاولون انتشال أنفسهم من يمّ الانسحاق البهيميّ شبه التام، من الجبن المشلّ والندم العبوديّ اليائس، حيث سيغطس أمثال هؤلاء في النهاية، وهذا ما يخافونه أكثر من الموت ومن العذاب بعد الموت".

أصغى أولريك كريستيان بهدوء إليه إلى أن اختلس السيف

Twitter: @alqareah

وأبرزه من الدثار، عندها صرخ: "إحم نفسك أيها الكاهن البطين!"، وهوى على السيد ينس بضربة، لكنه تفادى هذه الضربة الأكيدة بكتابه المقدّس العريض.

"دع عنك مزاح الصبيان هذا"، قال له باحتقار، "لأن كلينا بارعان جداً!... وهذه المرأة التي هناك"، واستدار إلى حيث آنا الإسكافية، من الأفضل أن تتركنا لوحدنا".

ذهب آنا، سحب الكاهن كرسياً إلى جوار السرير ووضع أولريك كريستيان السيف إلى جانبه فوق الدثار.

عندها شرع السيد ينس بحديث رصين عن الإثم وجزاء الإثم، عن محبة الربّ وأبناء الإنسان وعن الموت على الصليب.

فيما كان الكاهن يتحدّث كان أولريك كريستيان مضطجعاً يلعب بالسيف متيحاً للضوء أن يتراقص على شفرته الصقيلة. شتم ودندن بأغاني بذيئة وحاول مقاطعته بأسئلة تجديفية، لكن السيد ينس لم يتح له مقاطعته وظلّ يتحدث عن كلمات الصليب السبع، عن القربان المقدس، وعن تطهير الآثام والنعيم السماويّ.

عند ذلك أنهض أولريك كريستيان نفسه بإرهاق على السرير وقال مباشرة في وجه السيد ينس: "هذه كلها أكاذيب وتلفيقات جميعاً".

"فليأخذني الشيطان في مكاني إن لم تكن صادقة!"، هتف الكاهن، "كلّ كلمة سرمديّة منها"، وخبط على الطاولة حتى أنّ الأباريق والكؤوس قرعت مخشخشة على بعضها ثم نهض واقفاً على قدميه وتحدّث بنبرة صارمة إليه قائلاً: "أنت تستحق في غمرة غضبي العادل أن أنفض الغبار من أقدامي وأتركك تضطجع هنا وحيداً فريسةً أكيدة للشيطان ومملكته لأنّك أكثر واحد في أسره.

Twitter: @alqareah

أنت واحد ممن يسمّرون يومياً السيد المسيح على خشبة الصليب ومن أجلهم كل دهاليز جهنّم جاهزة. لا تتهكم على اسم جهنّم الرهيب، لأنّ صوته يحمل في طياته النار والعذاب. نعم، وفي بواطنه عويل العذاب والمقاساة المثير للشفقة وأوجاع المقارع! آخ، محنة الجحيم وبلاؤه أعظم مما يتصوره إنسان، لأنه إذا مات أحدهم مهشّم الأعضاء أو تحت كمّاشة الحديد الحامية واستيقظ في لهيب جهنم فسوف يتوق إلى موضع جلّاده وكأنه حضن إبراهيم. صحيح أن السقم والمرض مريران على لحم الإنسان حين توخزانه مثل تيار الهواء بوصة بوصة عبر كل عرق من عروق الجسد، حين يشنجان الأعصاب حتى تكاد تتقطع، وحين يحرقان الأحشاء كالنار المالحة ويقرضان بأسنان ليست حادّة نخاع العظام، لكن بلاء الجحيم مثل هبوب عاصفة من الألم يخلع أصغر مفصل من مفاصل الجسد عن موضعه مثل إعصار مدوّم من ألم لا يطاق، دورة أبدية للأنين والألم، مثل موجة تنسكب على الشاطئ ثم موجة جديدة فموجة أخرى من جديد في أبدية لا تنتهي، هكذا يتتابع وخز جمر الجحيم ومقارعه وراء بعضها البعض في سرمدية وخلود ومن دون انتهاء ولا توقّف".

تطلّع المريض حيران إلى ما حوله، "لا أريد شيئاً"، غمغم، "لا أريد شيئاً، لا علاقة لي بجهنمكم ولا فردوسكم، أريد أن أموت، ما أريده هو فقط أن أموت ولا شيء آخر".

"ستموت بالتأكيد"، قال الكاهن، "لكن نهاية ممر الموت المظلم ثمة بوابتان فقط، إحداهما تفضي إلى السعادة السماوية والأخرى إلى أنين الجحيم، وليس هنالك من طريق آخر تسلكه، لاشيء إطلاقاً".

Twitter: @alqareah

"بلى، هنالك طريق يا حضرة الكاهن، أليس كذلك؟ أجبّ! أليس ثمة قبر عميق، عميق، قريب على أولئك الذين مضوا في سبلهم الخاصة، قبر عميق، معتم يفضي إلى اللاشيء، لا شيء دنيويّ على الإطلاق؟".

"إن من مضى في سبيله الخاص ينتهي بهم المطاف إلى مملكة الشيطان، يتدافعون أمام بوابات الجحيم، الرفيع منهم والوضيع، الشيوخ والشباب، يتدافعون ويجرجرون ليتجنبوا الهاوية الفاغرة ويصرخون برثاء إلى الربّ الذي لم يتبعوا طريقه عسى أن يبعدهم عنها. صرخات الهاوية فوق رؤوسهم وهم منكمشون من الرعب والبؤس، لكن بوابات الجحيم ستطبق عليهم كما يطبق الماء على الغريق".

"هل هذا شيء أخبرك أحد ما به؟ بحق كلمتك كرجل صادق، أليس ذلك أكثر من تخيّل؟".

"بلى!".

"لكني لا أريد شيئاً، أريد أن أكون خارج نطاق ربكم، لا أريد على الإطلاق أن أكون في مملكة السماء، فقط أموت".

"إذن أعبر إلى موضع العذاب المريع، حيث تقذف أمواج الكبريت اللانهائيّة الفوّراة بجموع الملعونين، حيث أطرافهم تخلع بالكلاليب بشكل مريع وأفواههم الساخنة تشهق طلباً للهواء بين ألسنة اللهيب التي تتراقص على السطح. أرى أجسادهم تساق مثل نوارس بيض فوق البحر، نعم، مثل زبدٍ محلق في هبوب عاصف وصرخاتهم مثل هدير الأرض حين يهزّ الزلزال أحشاءها، أما شقاؤهم فلا اسم له. آخ! لو أن قلبي قادر على الصلاة لخلاصك، أيها التعس! لكن النعمة الإلهية أخفت سيماءها وشمس الرحمة

Twitter: @alqareah

الربانية غربت للأبد".

"لكن ساعدني إذن، أعنّي أيها الكاهن! تأوّه أولريك كريستيان، "أي نوع من القساسوة أنت حينما ى تستطيع المساعدة؟ صلِّ! لخاطر الله صلّ! أليس من صلاة في فمك؟ أو أعطني نبيذك وخبزك إن كان فيهما خلاص كما يقولون، بالنبيذ والخبز، أم أنها كذب، كذب خالص وضيع؟ سأزحف تحت أقدام إلهك مثل صبيٍّ نادم، إنه شديد الجبروت، جبروت غير عادل، جبروت لا حيلة معه جعّل منه إلهاً، إلهك، جعل منه إلهاً عليّ، أنا أنحني، أنا أنحني، لا أستطيع أن أفعل أكثر!".

"صلِّ!".

"نعم، سأصلّي، سأصلّي قدر يتوجّب عليّ، نعم!"، ثم جثا على ركبتيه في السرير وبسط يديه: "هل هذا صحيح؟"، سأل وهو يتطلع باتجاه السيد ينس، "وماذا يتوجب عليّ أن أقول؟".

لم يجب الكاهن على سؤاله.

بقي أولريك كريستيان برهة جاثياً على هذا المنوال محدقاً إلى الأعلى بعينين محمومتين واسعتين: "ليس ثمة كلمات، أيها الكاهن!"، قال متشكّياً، "يا سيدي يسوع! لقد تلاشت جميعها"، وانهار في مكانه باكياً.

فجأة انتفض منتصباً، قبض على سيفه وكسره نصفين وهو يصيح: "سيدي يسوع المسيح، أنظر، لقد كسرت حسامي!"، وأمسك بنصفي السيف اللامعين في الهواء: "المغفرة يا يسوع، المغفرة!".

شرع الكاهن حينها يتمتم بكلمات التعزية لأجله وعجلّ بتقديم السرّ المقدس إليه حينما لاحظ بأنه لم يعد لديه الكثير من الوقت.

Twitter: @alqareah

بعد ذلك نادى السيد ينس على آنا الإسكافية ثم غادر.

لأنّ الداء كان يعتبر معدياً فلم يكن يدخل أيّ من المقربين له غرفة المريض، لكن في الحجرة السفلية كان بعض من الأقارب والأصدقاء، طبيب الملك وبعض من سادة البلاط مجتمعين لاستقبال زيارات النبلاء، الوزراء الأجانب، الموظفين، رجال الحاشية والمستشارين الذين جاءوا يستفسرون عن صحته. لذلك فإن سلام غرفة المريض لم يعكّر وعاد أولريك كريستيان وحيداً من جديد مع آنا الإسكافية.

بدأت العتمة تخيم فوضعت آنا بعض الحطب في نار الموقد، أوقدت بضع شموع، تناولت كتاب صلاتها وغطست باسترخاء في الكرسي، سحبت طرف قلنسوتها إلى أمام وغطت في النوم. خارجاً في حجرة الانتظار كان ثمة حلاق وخادم متهيّئين للقيام بعملهما في حالة حدوث شيء، كانا جاثمين على أرضية الغرفة في جوار النافذة يلعبان النرد فوق حصيرة من القش حتى لا تصدر خشخشة عنه ومنهمكين في لبتهما حتى أنهما لم يلاحظا أن هناك أحداً قد انسلّ عبر الصالة قبل سماع صوت باب حجرة المريض وهي تنطبق خلفه.

"لا بدّ إنه الطبيب"، قالا وهما يتطلعان برعب إلى بعضهما.

كانت ماريا غروبة.

دنت من السرير دون إحداث أي صوت وانحنت فوق المريض الذي كان يضطجع نائماً هناك في سكون. في غمرة العتمة والضوء الملتبس بدا شاحباً وغريباً عليها، جبهته في بياض الموت، الجفنان كبيران جداً على نحو غير عجيب ويداه الضامرتان، الشاحبتان كالشمع بدتا واهنتين وعاجزتين فوق قماش اللحاف الغامق الزرقة.

Twitter: @alqareah

بكت ماريا. "أأنت مريض إلى هذا الحدّ؟"، همهمت وجثت على ركبتيها أمام السرير، أسندت مرفقيها على حافة السرير وتطلعت مباشرة إلى وجهه.

استيقظ وفتح عينيه. باحثة ومضطربة كانت نظرته.

"أولريك كريستيان!"، نادته ووضعت يدها على كتفه.

"هل من آخرين هنا؟"، تأوّه بوهن.

هزّت رأسها. "هل أنت مريض جداً؟"، سألته.

"نعم، قريباً ينتهي أمري".

"كلاّ، كلاّ! ينبغي أن لا يحدث هذا، فمن يتبقى لي حينما ترحل؟ كلا، كلا، كيف سيمكنني أن أتحمل؟".

"أن تحيا؟ من السهل أن يحيا المرء، لكنني تناولت خبز الموت ونبيذ الموت، ينبغي أن أموت... نعم، نعم، نعم... خبز ونبيذ، لحم ودم. هل تعتقدين أنه سوف... كلا، كلا، باسم يسوع المسيح، باسم يسوع المسيح! صلّي صلاةً ما، أيتها الصبية، صلّي صلاة نقيّة وراسخة!".

بسطت ماريا يديها وصلّت.

"آمين، آمين! صلّي ثانية! أنا آثم كبير، أيتها الصبية، أحتاج إلى الكثير، صلي من جديد، صلاة طويلة وبكلمات عديدة، العديد من الكلمات! آآ، كلا؟ ما هذا الآن؟ لماذا يدور السرير؟ ثبّتوه، ثبّتوه! إنه يدور فيما حوله... مثل زوبعة دوّارة من بلاء لا يطاق، دوار سرمديّ من العذاب و...ها، ها، ها...، هل أنا سكران من جديد. أيّ لعبة هذه! وما الذي شربته بحق الشيطان؟ نبيذ؟ آه، أكيد، كان نبيذاً ما شربت! ها، ها، نشوان، يا صغيرتي، نشوان! قبّلني يا كتكوتي!

Twitter: @alqareah

اللمسات والقبل

هي السماوات على الأرض...

قبليني يا طفلتي، أنا مبترد جدًّا، لكنك ممتلئة ودافئة... قبليني بحرارة! ثم أنك بيضاء وبضّة، وبيضاء وناعمة...".

طوّق بذراعيه ماريا وضغط الصبية المرعوبة على جسده. عند تلك اللحظة استيقظت آنا الإسكافية وأبصرت المريض جالساً يغازل أنثى غريبة. رفعت كتاب صلواتها في الفضاء مهددة وصاحت: "أخرجي، يا امرأة الجحيم! الفتاة الفاضلة لا تجلس هناك وتغازل رجلاً يحتضر! أخرجي أيّما كنت تكونين خادمة له من أعداء البشر، يا رسولة الشيطان!".

"الشيطان!"، صرخ أولريك كريستيان ودفع ماريا غروبة بذعر عنه. "انصرف بعيداً يا شيطان! أخرج، أخرج!"، ورسُم علامة الصليب المرة تلو الأخرى، "أوه، أيها الشيطان الملعون! تريد أن تأخذني نحو الإثم وأنا في أنفاسي الأخيرة، في ساعتي الأخيرة، حيث يتوجب عليّ أن أكون حذراً، ابعد، ابعد باسم الربّ المبارك، أيها الشيطان المتجسّد!"، وبعينين متسعتين ورعب طغى على كل قسمات وجهه وقف في السرير وهو يشير نحو الباب.

منذهلة وفاقدة إدراكها من الرعب اندفعت ماريا إلى الخارج.

ألقى المريض بنفسه على السرير وصلى وصلى، فيما كانت آنا الإسكافية تقرأ بصوت عال وببطء الصلاة تلو الأخرى من كتابها ذي الحروف الكبيرة.

بعد بضع ساعات توفي أولريك كريستيان.

Twitter: @alqareah

بعد العاصفة التي عصفت على كوبنهاغن في فبراير سنة تسع وخمسين، تراجع السويديون واكتفوا بإبقاء المدينة تحت الحصار.

تنفّس المحاصَرون الصعداء بحرّية، وزر الحرب أضحى الآن أخفّ مما كان عليه من قبل، أصبح للمرء مساحة ليبهج نفسه فيها بما فعل وبما أحرزه من الشرف الذي حظي به والامتياز الذي نال. صحيح أن هناك من استعذب مذاق حياة الحرب المثيرة ويتطلع بقنوط إلى أن يسبغ زمن السلم الضجر والكآبة على مشهد الحياة اليومية، لكن أغلب الجموع من مواطني المدينة كانوا سعداء وقلوبهم منبسطة، وتجلت تلك الغبطة في مفاصل العوام المبتهجين عبر احتفالات الأعراس، التعميد والخطوبات التي كانت تقام إلى أوقات متأخرة، وفيما كانت حشود العدو القريبة تضيق على خناق المدينة، كانت الجموع السعيدة تعقد أفراحها في كل ممشى وزقاق من أزقة المدينة.

أصبح هنالك أيضاً وقت للاهتمام بالجيران وجعل القشّ الذي في عيونهم أخشاباً!. صار هنالك وقت للاغتياب، للحسد والحقد على بعضهم البعض. غيرة المهنة والنجاح تفجرّت بقوّة من جديد والعداوات القديمة اندلعت بأحقاد جديدة وتعطش جديد للانتقام. أحد من كان هنالك في الآونة الأخيرة حاول مضاعفة عدد أعدائه فجمع تقريباً أحقاد الجميع فوق رأسه، وهو كورفيتز أولفيلدت. لم يكن باستطاعة أحد النيل منه إذ كان آمناً في معسكر الأعداء، لكن

Twitter: @alqareah

أقربـاءه وأقربـاء زوجتـه، الذين كان يعتقد أنهم يتعاطفون معه، فقد نظـر إليهـم بعنـي الريبة، روقبوا وتمـت مضايقتهم ولم يكن البلاط يعرفهم.

لـم يكـن هنـاك الكثير من المعنيين، لكـن كان من بين هؤلاء القلّة صوفيا أورنة، خطيبة أولريك فريدريك.

الملكـة، التـي كانت تبغـض زوجة أولفيلدت أكثر مما تبغض أولفيلدت نفسـه، كانت منذ البدء تعارض علاقة أولريك فريدريك بامرأة شـديدة القرابة إلى إليونورا كريستينا، والآن بعد ما وضعت تصرفات أولفيلدت الأخيرة شخصه تحت أضواء الأحقاد أكثر من ذي قبل، شرعت من جديد بالعمل، سواء مع الملك أو الآخرين، على إلغاء تلك العلاقة.

لـم يطـل الوقـت حتى كانت مشـيئة الملـك متوافقة مع رغبة الملكـة، إذ صـوّرت صوفيـا أورنـة لـه، والتـي كانت ماكـرة فعلاً، بأنهـا شـخص خبيـث وخطـر، وأنّ أولريك فريدريـك رجل طائش للغاية وسـهل المقود، حتى أصبح واضحاً للملك حجم المشـاكل والمصاعـب التـي قـد تبرز نتيجة لهذه المصاهرة، لكن بما أنه كان قد أعطى موافقته فقد كان متحسّساً، لأجل كلمته وشـرفه، من أن يتراجع عنها، لذلك حاول أن يقنع أولريك فريدريك. أوضح له كم من السهل تعكير صفو العلاقات الطيبة البلاط من قبل شخص كان عن استحقاق هو والملكة يعارضان وجوده، لأن تعاطفه كان كلّياً منصباً في وجهة أعداء العائلة المالكة. علاوة على ذلك، كيف أنه يقف عرضة في طريق سعادته لأن من المقلق أن يكون من شرّف بهذا المنصب الخطير تحت تأثير شخص من محيط أعداء البلاط. وفي النهاية لمح إلى خصلة المكر لدى الآنسة صوفيا مبدياً شكوكه

Twitter: @alqareah

في أنها تحبّه فعلاً، لأنّ المحبّ الحقيقيّ والصادق، كما قال، يتوجب عليه التضحية إذا جلب التعاسة والمصائب على حبيبه، وعليه أن يخفي رأسه بحزن بدلاً من الإعلان عن نفسه مهللاً، لكن الآنسة صوفيا لم يبدر منها أيّ تردّد، بالعكس لقد استغلت شبابه وحبه الأعمى. هكذا تحدث الملك لكنه لم يصل إلى نتيجة مع أولريك فريدريك لأنّ ذكرى مدى استماتته في استمالة قلب الآنسة إليه ما زالت طريّة في ذهنه، وحين مضى من الملك كان أشدّ تصميماً على قراره من قبل في أن لا أحد سيمكنه التفريق بينهما. خطوبته لصوفيا هي أول خطوة جادّة في حياته كان إنجازها مسألة شرف بالنسبة إليه. لقد كان هناك العديد من الأيادي المستعدة لقيادته وتوجيهه لكنه بلغ الآن من العمر ما يجعله مؤهلاً للسير وحده وهذه هي رغبته. ماذا يعني تعاطف البلاط والملك، ماذا يعني المجد والشرف مقارنة بحبّه؟ ليس لسواه يكافح ويضحّي، ليس في غيره سيعيش.

رغم ذلك فقد أحاط الملك كريستوفر أورنة علماً بأنه كان ضدّ العلاقة، فأغلق البيت لذلك بوجه أولريك فريدريك الذي توجّب عليه من الآن فصاعداً زيارة الآنسة صوفيا خفيةً. في البدء كان لوقع هذا الأمر على مشاعره مثل وقع الريح العاصفة على لهب مضطرم، لكنّ هذا الزيارات النادرة لخطيبته جعلت من رؤيته لها أكثر وضوحاً ومرّت به لحظات كان فيها الشكّ يراوده بشأن حقيقة حبها، نعم، حتى أنه تساءل فيما إذا كانت تقوم بإغرائه، في ذلك الصيف، عندما كانت تبدو أنها تقوم بصدّه.

البلاط، الذي كان إلى وقت قريب يستقبله بذراعين مفتوحين، أصبح يبدي نحوه الآن فتوراً بارداً. الملك الذي كان من قبل منشغلاً

Twitter: @alqareah

بحرارة بشان مستقبله أضحى عدم الاكتراث ذاته، لم تعد ثمة أيدي تمتد نحوه لتدلّه على الطريق فبدأ يحنّ إليها، لم يكن إطلاقاً بذلك الرجل الذي يسبح ضدّ التيار، الذي كان بمجرد انقطاعه عن حمله تخور عزيمته. منذ ولادته وضع خيط ذهبيّ في يديه وكان عليه فقط أن يتبعه إذا أراد الصعود إلى السعادة والشرف. لقد أفلت هذا الخيط من يده ساعياً للعثور على طريقه بنفسه لكنه ما زال يراه أمامه يتلألأ. هل ينبغي أن يمسك به من جديد؟ ليس بإمكانه استجماع رجولته وتحدّي الملك، ليس بإمكانه الاستغناء عن صوفيا، وعند شارع كروغ ينبغي عليه أن التسلل خلسة لزيارتها، كبرياؤه تقاسي الأمرين من هذا التسلّل المذلّ الذي كان تقريباً أقسى ما مرّ به في حياته، لأنه كان معتاداً على السير في أبّهة وخيلاء، أن يخطو كل خطوة في أناقة أميريّة، والأمر يختلف هنا تماماً. مضت أيام، مضت أسابيع في تفكّر عقيم وخطط مجهضة، كان يقاسي من إعيائه، بدأ في احتقار نفسه وأخذت تراوده الشكوك: ألم يكن تردّده السرمديّ هو الذي قتل حبها، أم أنها لم تكن تحبّه إطلاقاً؟ لقد كانت في غاية الذكاء، يقولون، نعم كانت ذكيّة بالتأكيد، لكن هل كانت ذكيّة جداً مثلما يقولون؟ أوه، كلا، ما هو الحب إذن إن لم تكن تحب، وهكذا دواليك، دواليك...

Twitter: @alqareah

خلف حديقة منزل كريستوفر أورنة يمتد ممشى صغير ليس بإمكان سوى رجل واحد أن يحشر نفسه فيه لاجتيازه، هذا الطريق هو الذي كان يتوجب على أولريك فريدريك أن يسلكه حينما يرغب بزيارة خطيبته، وكان يفضّل اصطحاب "قصير الباع" معه لحراسة طرف الممشى لكي لا يمكن لمن في الجادة رؤيته وهو يتسلق ألواح السياج.

ذات ليلة صيف دافئة، صافية القمر، بعد ثلاث أو أربع ساعات من موعد النوم، كان دانيال متلفعاً بعباءته ويقعي فوق بقايا علف الخنازير الذي ألقي به من أحد المنازل القريبة. كان في مزاج طيب، سكران إلى حدّ ما ويجلس وابتسامة صغيرة تلوح شفتيه بسبب الأفكار المرحة التي تراوده. كان أولريك فريدريك قد تسلق السياج واثباً إلى الحديقة. شذا البيلسان يفوح قويّاً، على العشب الأخضر الكثيف ثمة كتان مطروح للتبييض يمتد على شكل شرائط بيضاء طويلة. ثمة خشخشة خفيفة تنبعث من شجرة القبقب التي فوق رأسه وبين شجيرات الزهور التي على جانبه، كانت مكتظة بالأزهار الحمر لكن في ضوء القمر الساطع كانت تتراءى له بيضاً تقريباً. سار إلى داخل المنزل الذي كان يقبع بجدرانه الصقيلة البيض ونوافذه الصفر اللامعة. يا لهذا السكون الذي يغمر كل شيء، تألق وهدوء...! فجأة ارتعش طنين جُدجُد زجاجيّ النغمات عبر الهواء، ظلال شجيرات الخطمية الحادة،

Twitter: @alqareah

الزرق تنتصب وكأنها مرسومة على الجدار الأبيض وراءها. ضباب رقيق يتصاعد من قماش التبييض - الآن! مزلاج الباب ويكون داخل العتمة. تلمس طريقه بحذر صوب الدرج العتيق، استقبله هواء العليّة الدافئ، المطيّب وتحت أقدامه كان خشب الأرضية العاهر يصرّ ويصرّ. شعاع القمر كان يتسرب إلى الداخل عبر كوة مربعة صغيرة في السقف رسمت بالضوء شكلها المربع وسط سطح ركام القمح المسوّى، وفوق الركام كان الغبار يدوّم في عمود الضوء من خلفه. وصل الآن إلى باب حجرة الجملون. فُتح الباب من الداخل، شعاع ضوء واهن، ضارب للحمرة، جعل من ركام القمح الموقد الحجريّ المائل، الأصفر المسّخم، وعوارض السقف تنسحب لوهلة إلى خارج العتمة ثم اختفت ليكون هو مع صوفيا في مقصورة ملابس العائلة.

كانت حجرة صغيرة وواطئة، مليئة بخزائن كبيرة للبياضات، تحت السقف أكياس كتّان معلّقة ملأى بالزغب والريش، دولاب غزل عتيق منصوب على كلاليب والحيطان معلّق عليها ضفائر من البصل الأحمر وعدّة فرس فضّية السَّناد. هناك تحت النافذة المغلقة بمزلاج خشبيّ كبير ثمة مشكاة يدويّة منصوبة فوق صندوق مزيّن بالنحاس، فتحت صوفيا زجاجتها القرنية الشكل لكي تضيء أفضل، شعرها كان مرسلاً ومنسدلاً عند الظهر فوق سترة مبطنة بالفرو كانت قد ارتدتها فوق فستانها المنزليّ، وجهها كان شاحباً ومضنى بالهموم لكنها ابتسمت بمرح وتدفقت بالحديث. كانت قد جلست على مقعد واطئ، يداها مشبوكتان حول ركبتيها وتتحدث بجذل وهي تتطلع إلى أولريك فريدريك الذي كان واقفاً دون أن ينبس ببنت شفة، لكنه حديث يغذّيه الخوف لأن انكساره قد

Twitter: @alqareah

أرعبها.

"ماذا الآن يا سيّد صامت ومقطّب!"، قالت له، "أنت لا تفوه بشيء، ألم يخطر ببالك خلال المائة ساعة التي انقضت مئات الأشياء التي تودّ أن تهمسها لي؟ آه، لعلك لست مشتاقاً مثلي!"، أزالت ذبالة الشمعة في القنديل بأصابعها وألقت بفتيلة متوهّجة فوق الأرضية فخطا أولريك فريدريك على نحو غريزيّ خطوة إلى أمام ودعس عليها مطفئاً شرارتها.

"هذا صحيح!"، واصلت الكلام، "تعال هنا واجلس إلى جانبي، لكن قبل ذلك عليك أن تجثو وتتنهّد وتتضرع لي كي أرضى عنك، لأنها الليلة الثالثة التي أجلس فيها هنا وأترقّب، أمس وأول أمس مكثت أنتظرك بلا طائل وترقّبت حتى عشيت عيناي". رفعت يدها مهددة: "اركع، يا سيّد غدّار! وصلّ كما أصلي أنا لحياتك"، قالت ذلك برسميّة مصطنعة ثم ابتسمت بعدها وترجّته شبه متضرعة، شبه نافذة الصبر: "تعال الآن هنا واركع، تعال الآن هنا واركع!".

تطلع أولريك فريدريك إلى ما حوله ممتعضاً تقريباً، فمن غاية السخف أن يجثو هنا في خزانة منزل كريستوفر أورنة، لكنه مع ذلك جثا، طوّق خصرها بذراعيه ودسّ وجهه في حجرها، لكن دون أن يقول شيئاً.

كانت هي صامتة أيضاً، مرتبكة وخائفة، لقد لاحظت أن أولريك فريدريك كان شاحباً ومتعذّباً وعينيه جافلتان وقلقتان، عبثت يداها بشعره في إهمال، فيما كان قلبها يخفق بعنف في فزع متوجّس.

على هذا الوضع بقيا طويلاً جاثمين.

Twitter: @alqareah

فجأة وثب أولريك فريدريك من مكانه.

"كلا، كلا"، قال لها، "لا يمكن أن يظلّ الأمر هكذا! يشهد أبانا الربّ، سيدنا في السماوات، على أن حبّك يسري في داخلي سريان الدم في شرايني ولذلك لا أعرف أية حياة سأعيشها من دونك. لكن ما فائدة ذلك؟ والى أين سيؤدي بنا في نهاية المطاف؟ الكلّ يقف ضدّنا بقسوة، ما من فم ينطق بكلمة مواساة لنا، جميعهم انقلب علينا فرداً فرداً. حينما يروننني يبدون وكأنّ ظلاً بارداً سقط عليهم، لكن قبلاً كان يبدو وكأنّه ضياء حينما أجيء. أنا أقف وحيداً تماماً يا صوفيا، في غاية المرارة، وحدة مريرة! نعم، أعرف أنكِ حذرتيني من ذلك، وأنا أشعر بالأسى والعار أن أصلي الصلاة التي أريد، لكني سوف أتلف من هذا الصراع الذي استنفذ كل شجاعتي وكرامتي، لذا أنا أحترق من الخجل، لكن بجبن وخسران، لذلك أرجوك أطلقيني! حرريني من كلمتي، يا فتاة قلبي الأثيرة!".

نهضت صوفيا من مكانها، انتصبت باردة ورابطة الجأش مثل دعامة وحدّقت في صرامة نحوه فيما هو يتحدث.

"أنا حبلى"، قالتها بهدوء وثبات.

لو أنها قالت له نعم، لو أنها منحته حريته، أدرك أولريك فريدريك، لما تقبل ذلك، سيلقي بنفسه متضرعاً تحت قدميها، سيتحدى الملك وجميع الآخرين، أكيد بالنسبة لها، لكنها لم تفعل ذلك، إنها لا تفعل سوى سحب سلسلته لتريه مدى جودة قيده، يا لذكائها، كما يقولون، دواخله تغلي، باستطاعته الوثوب عليها، الإطباق على حنجرتها البيضاء لانتزاع الحقيقة منها، ليرغمها على أن تبسط أمامه كل ورقة من وردة حبها، كل ظلّ وكل ثنية، ليمكنه أن يتيقّن، لكنه أرغم نفسه وقال مبتسماً: "بالتأكيد، أنا أعرف أنك

Twitter: @alqareah

تعرفين أنها كانت دعابة فقط".

تطلعت صوفيا باضطراب نحوه، كلا لم تكن دعابة أبداً، لم تكن كذلك، لِمَ لم يأت إليها ويقبلها إذا كانت دعابة حقاً؟ لماذا بقي واقفاً في سكون هنالك في الظلال؟ لو أنها فقط تستطيع رؤية عينيه، كلا لم تكن دعابة، لقد سأل بذات الجدية التي ردّت بها. آخ، يا لهذا الجواب! إنها لا تعرف ماذا خسرته به، إنه لن يهجرها لو قالت له نعم، "أوه، يا أولريك فريدريك"، قالت له، "أنا لا أفكر سوى بطفلنا، لكنك إذا لم تعد تحبني فاذهب في سبيلك إذن، اذهب حالاً وشيّد سعادتك، لم أعد أتمسك بك".

"ألا تفهمين شيئاً، لقد كانت مزحة لا غير، كيف تصدقين بأنني يمكن أن أتوسل لسحب كلمتي وانسلّ بعيداً مكللاً بالعار والفضيحة المخزية! ستوجّب علي"، قال لها، "في كل مرة أرفع فيها رأسي أن أشعر بالخوف من النظرة التي أبصرت عاري أن تلتقي بنظرتي وتجبرني على الإطراق في خجل إلى الأرض"، وكان يعني ما يقول. لو أنها فقط كانت تحبه بذات العمق مثلما أحبها، لعلها كانت، لكن الآن، مستحيل.

مضت صوفيا إليه، وضعت رأسها فوق كتفه وبكت.

"وداعاً يا أولريك فريدريك"، قالت له، "اذهب، اذهب، لن أقيّدك بشعرة واحدة لأبقيك هنا في الساعة التي تودّ فيها الرحيل".

هزّ رأسه بنفاذ صبر. "صوفيا يا قلبي"، قال لها وتملّص من بين ذراعيها، "لا تدعينا نمثل مسرحية كوميدية على بعضنا، أنا مدين أمامك وأمام نفسي بأن يعقد القسّ بين يدينا ولكنه لم يحدث سريعاً، ولذلك يجب أن يحدث خلال بضعة أيام، لكن يجب أن يعقد في سرية تامة، فلا فائدة تجني من جعل العالم ضدنا أكثر مما

Twitter: @alqareah

هو عليه الآن". لم تجرؤ صوفيا أن تبدي أي اعتراض فاتفقا على المكان والكيفية التي سيعقد فيها القران، وفي الختام ودّع أحدهما صاحبه في محبّة.

حينما نزل أولريك فريدريك إلى الحديقة كان القمر قد احتجب والظلمة غمرت كل شيء، بضع قطرات مطر ثقيلة كانت تهطل من السماء الحالكة. في الحظائر كانت الديكة المستيقظة المؤرقة تصيح، لكن دانيال كان غارقاً في النوم في موضع حراسته.

في ردهته الخاصة، بعد أسبوع، عقد قران الآنسة صوفيا وأولريك فريدريك سرّاً على يد أحد القساوسة الفقراء. لكن هذا السر لم يتم كتمه جيداً، إذ بعد مرور بضعة أيام على القران تحدّث الملكة إلى الملك بشأنه. تبعات ذلك كانت فسخ القران بعد مرور شهر عليه بمرسوم ملكيّ وتقريباً في نفس الوقت أرسلت الآنسة صوفيا بموافقة قريبها إلى دير الآنسات في إتزاهو.

لم يقم أولريك فريدريك بأي مسعى لمنع هذه الخطوة، صحيح أنه شعر بنفسها منتهَكاً، لكنه كان متعباً وواهناً وفي إذعان بليد جوفاء لها، لأنه كما يقول الآن لا بد مما ليس منه بد. كل يوم تقريباً كان يشرب ويسعد حينما يفعل النبيذ فعله، حيث يشكو باكياً للبقية الباقية من ندمائه المخلصين، واصفاً الحياة السعيدة، العذبة، الوادعة التي كان من الممكن أن يحياها، مختتماً شكواه دائماً بتلميح كئيب إلى أن أيام حياته باتت معدودة وقريباً يحملون قلبه المحطّم إلى موضع العلاج، حيث الوسادة تراب أسود والديدان طبيب.

لكي يضح حدّاً لتبعات هذه القضية جعله الملك يرافق القوات التي نقلها الهولنديون، حلفاء الدنمارك، إلى جزيرة فين، ومن هناك

Twitter: @alqareah

عاد في منتصف نوفمبر وهو يحمل بشائر النصر عند نيبورغ، ينال حظوة الملك ويسترد مكانته في البلاط، سمّي كولونيلاً للخيالة، وبدا أنه قد عاد إلى رشده تماماً من جديد.

Twitter: @alqareah

بلغت ماريا غروبة الآن السابعة عشر من العمر.

في تلك الظهيرة، التي هرعت فيها مرعوبة بعيداً عن سرير أولريك كريستيان جيلدنلو المحتضر، وصلت منهارة إلى حجرتها وظلت تروح وتجيء فوق الأرضية وهي تعصر بيديها وتعول كأنما تعاني ألماً جسدياً مبرحاً، حتى أن لوسيا هرولت مقطوعة الأنفاس نازلة إلى السيدة فريجيتز والتمست منها لأجل الله أن تلقي نظرة على لوسيا في الغرفة العليا، فقد اعتقدت أن شيئاً ما قد تمزّق في أحشاء الآنسة لوسيا، فصعدت السيدة ريجيتز لكنها لم تستطيع انتزاع كلمة واحدة من الصبية التي ألقت بنفسها تحت أحد الكراسي ووجهها مخبوء في البطانة، وكانت ترد على كل سؤال تسأله السيدة ريجيتز لها بأنها لا تريد سوى العودة إلى البيت، إنها تريد العودة إلى بيتها، لا يمكنها مواصلة البقاء هنا على الإطلاق، ثم تنتحب وتنشج وتهزّ رأسها من جانب إلى آخر. وفي النهاية ضربتها السيدة ريجيتز علقة ساخنة ووبخت صوفيا لأنها كادت تنتزع الحياة منها بسفاسفهن هذه، ثم غادرت الغرفة وتركتهما في عهدة بعضهما.

كانت ماريا لا تكترث حينما تُضرب. حينما كان يعرض عليها الضرب في أيام غرامها السعيدة، كان تراه كأسود التعاسات، الأعمق إذلالاً، أما الآن فلم يعد الأمر مهماً، كل أشواقها الآن، إيمانها وآمالها ذبلت في ساعة قصيرة قصيرة، انكمشت على بعضها

Twitter: @alqareah

ونفثتها الريح. مرّ بخاطرها حادثة شهدتها ذات مرة حينما كانت في بيتها في تشيلة، حين شاهدت أحد الفلاحين وهو يرجم حتى الموت كلباً كان قد ولج إلى مسبحة البطّ المسيّجة بسور عال، بقي الحيوان التعيس يسبح صامتاً حول نفسه، غير قادر على الخروج منها فيما كان الدم ينزّ من جسده، حجر يجرحه هنا وحجر يجرحه هناك، وتذكرت أنها كانت تبتهل إلى الرب ليجعل من كل حجر يقع أن يوغر عميقاً جداً، لأن الحيوان كان من البؤس إلى درجة أن حمايته ستكون من أشدّ الآثام وحشية. أحست بأنها مثل ديانا المسكينة فرحبت بكل الأحزان والأوجاع لو كانت تصيبها عميقاً فقط، لأنها كانت من التعاسة بمكان يجعل من طلقة الرحمة غاية أمالها وتطلعها. آه، لو ثمة نهاية لكل هذه الفداحة: النشيج عبوديّ، الهذيان الفاسق، والرعب الخنوع، آه، ما من فداحة أشدّ من هذه. البطل الذي حلمت به خرج على حصانه من بوابة الموت بمهماز طنّان ولجام مجلجل، برأس حاسر وسيف مخفوض، لكن ليس بفزع في عيون خرقاء، ولا ابتهالات على شفاه مرتعشة. ما من شخص متألق تتشوق إليه في حبّ عباديّ، ما من شمس تحدقّ في ضوئها حتى العماء، كي يكون كل شيء متألقاً ولامعاً وملوناً. فاترة ورمادية جميعها، كل شيء كان فاتراً ورمادياً وخاوياً، أيام لا قعر لها، حياة يومية فاترة كلها.

هكذا كانت تفكر أول مرة، بدت وكأنها انجذبت لبرهة وجيزة إلى عالم خياليّ مدهش غنيّ بالألوان، حيث هواؤه الدافئ، الحافل بالحياة جعل من كينونتها تتفتح مثل زهرة مدهشة نادرة، تشعّ نوراً من كلّ ورقة، وتنفث عبيراً من كلّ وريد، مباركة في ضوئها وعطرها تنمو وتنمو، ورقة في ثنايا ورقة، ثنايا تتسع على

Twitter: @alqareah

ثنايا في طاقة وامتلاء مستديمين. لكن كل ذلك ذهب هباءً، حياتها أضحت قاحلة ومجدبة من جديد، كانت خاوية ومتجلدة من البرد، وهكذا كان العالم كله والناس أجمعين، ومع ذلك هم ماضون في مشاغل حياتهم العقيمة. آه، قلبها أضحى مريضاً من قرف رؤيتهم يتباهون بأسمالهم البالية وهم ينصتون فخورين إلى رنين الذهب في قعقعتهم الخاوية.

بسطت يدها بحرص على ذلك الكنز من كتب التقوى القديمة، التي كانت غالباً ما تعرض عليها وغالباً ما تعرض عنها، فعثرت على عزاء كئيب بين ثنايا كلماتها الصارمة عن بؤس العالم وتفاهة جميع الأشياء الدنيوية، لكن أحد تلك الكتب التي كانت هناك، والذي تعلقت به أكثر من بقية الكتب الأخرى وبقيت تعاود قراءته المرة تلو المرة هو "سفر الرؤيا". لم تكن تتعب من التأمل في بهاء أورشليم السماويّ، تصورت نفسها في أصغر التفاصيل، سارت عبر أضيق الأزقة ونظرت إلى كلّ باب، تركت عينيها تعميان من البريق المتلألئ من العقيق والزمرّد، الزبرجد والياقوت، استراحت في ظلال بوابات اللؤلؤ وتمرأت في ذهب الشوارع الشفاف. كثيراً ما فكّرت في ما سيفعلونه، هي ولوسيا وعمتها السيدة ريجيتز وجميع أهالي كوبنهاغن، حينما يسكب الملاك الأول قدح غضب الله على الأرض، وحين يسكب الملاك الثاني قدحه، والثالث قدحه، أكثر من ذلك لم تمض، لأنها تعود دائماً إلى البداية من جديد.

كانت لا تكلّ، حينما تكون جالسة تعمل، من إنشاد ترانيم طويلة مفعمة بالعاطفة بصوت عال وشاكٍ، وحين تكون عاطلة تصلّي صلوات طويلة من "سلسلة المصلّين" أو "أصوات الاثني عشر شهراً الربانية"، لأنّ هذين الكتابين كانت تحفظهما تقريباً

Twitter: @alqareah

عن ظهر قلب.

تحت كل هذه التقوى كان ثمة شيء من طموح مضمر، لأنها حقيقة كانت تنوء بثقل سلاسل الإثم التي ترسف فيها وتتوق إلى الاتحاد مع الله، لكن كذلك كان ثمة خلط في ممارساتها الدينية مع رغبة غامضة بالقوة، أمل شبه مدرك في أن تكون أحد الورعين المصطفين، أحد الأوائل في مملكة السماء. كينونتها تغيرت تماماً مع هذا كله، انطوت على نفسها وتجنبت الناس وحتى مظهرها الخارجيّ تغيّر أيضاً، أضحت نحيلة وشاحبة الوجه وشع من عينيها وميض قاس وحارق، وليس ثمة غرابة في هذا، لأن مشاهد سفر الرؤيا المفزعة كانت تخبّ حيّة في أحلامها أثناء الليل، أما في النهار فقد كانت تسترسل في أفكارها عن كل ما في الحياة من عتمة وغمّ، وعند السماء، حينما تستغرق لوسيا في النوم، كانت تنهض من سريرها لتعثر على نشوة رهبانية صوفيّة بالجثو على ركبتيها العاريتين فوق الأرضية وتظل تصلي إلى توجعها عظامها أو تعجز عن الإحساس بقدميها اللتين المخدرتين من البرد.

بعد ذلك حلّ الوقت الذي انسحب فيه السويديون متراجعين فقضى جميع من في كوبنهاغن أوقاتهم بين ملء الكؤوس كمُضيفين أو ارتشافها كضيوف، وفي أحد الأيام حدثت رجّة عند ماريا، إذ قدمت السيدة ريجيتز تتبعها الخيّاطة إلى الحجرة وكدست فوق الطاولة والكراسي أكواماً من القمصان، الفساتين والقبعات المزخرفة باللؤلؤ التي وريثتها ماريا عن والدتها الراحلة، فقد توصلوا الآن إلى أن الوقت قد حان لكي ترتدي ماريا ثياب الراشدين.

أحست بالنشوة من أن تكون محوراً لكل هذا الانشغال

Twitter: @alqareah

الـذي تفجّـر فجـأة بين جدران غرفتهـا الصغيرة، من كل هذا الفتق والقيـاس والقـصّ والتخييط، ويا لطافة هذا السـاتان القرمزيّ حين تتثنى طياته المتوهّجة، أو تلألؤه الساطع حينما يلتفّ على جسدها بإحكام،كـم هو آسـر، آسـر وخلاّب، أن تصغـي للجدال الحريص حول ما إذا لم يكن هذا الكاميلوت الحريري سميكاً لدرجة تمنع مـن إبـراز تقاطيـع جسـدها، أو فيمـا إذا كان ذلـك الحريـر التركيّ الأخضر موائماً لبشرتها! ما من وساوس، ما من أحلام ثقيلة على النفس يمكن أن تقف أمام هذا الواقع السعيد، المبهر. ولو أمكنها، لمـرة واحـدة فقـط، أن تجلس عند طاولة حفل لاسـتهلت قدومها إليه مرتدية هذا الأبيض الثلجيّ، المتموّج الياقة بين بقية الآنسات ذوات الياقات المتموّجة لبدا كلّ هذا الزمن غريباً عليها مثل حلم من ليلة البارحة، ولو أمكنها لمرة واحدة فقط أن ترقص "السربندة" و"البافون" في فستان ذهبيّ ذي تنّورة وقفافيز طويلة مخّرمة ومنديل مزخرف، وهذه الأقراط الروحانيّة ستجعل من خديها يشتعلان في حمرة الخجل.

ثـم شـعرت بالخجـل مـن نفسـها، لأنهـا رقصت"السـربندة" و"البافـون"، فعليهـا أن تذهـب مرتيـن فـي الأسـبوع للمشـاركة بتماريـن الرقـص مـع فتيـات أخريـات نبيلات في صالة كريسـتيان سـكيل الكبيـرة، حيث يقوم ألماني عجـوز بتلقينهن الوقفة، الخطو والتحيات وفقاً لأحدث الأسـاليب الإسـبانية. إضافة إلى ذلك فقد درّبـت علـى العـزف على العود وأصبحت تجيد الفرنسـية بطلاقة، فالسيدة ريجيتز كان لها خططها الخاصّة.

ماريا كانت سعيدة.

مثلها مثل أميرة شابة كانت محبوسة ثم أطلق سراحها الآن من

Twitter: @alqareah

عتمة السجن وجلافة السجانين من قبل أناس مهللين ووضعوها مباشرة على سدّة العرش وتاج السلطة والمجد الذهبيّ يطوق خصلات شعرها بإحكام وهي ترى الجميع يبتسمون بإجلال، ترى الجميع ينحنون له معترفين بسلطته، هكذا كانت هي كذلك حينما خطت خارجة من حجرتها الهادئة إلى العالم، والجميع أشاد بها وأطرة عليها وكأنها كانت ملكة، الكل يبتسم منحيناً لسلطة جمالها.

كان ثمة زهرة تدعى الياقوتية، كمثل زرقتها كان لون عينيها، لكنهما كانا مثل قطرات الندى لمعاناً وفي عمق اللازورد الهاجع في الظلال. كان بإمكانهما أن ينخفضا في رفق مثل نغمة عذبة تموت، ويرتفعا في جذل مثل نفخة بوق. كئيبتان، نعم! مثلما حين يبزغ النهار، فتصدأ النجوم بحجاب من ضوء مرتعش، هكذا هي نظرتها وقت تكون كئيبة. يمكنهما أن تستقران مبتسمتين بألفة بالغة حتى أن عدة رجال شعروا، وكأنما في حلم بعيد لكنّه ملح، بمن يناديهم بأسمائهم. لكن حينما خيم ظلام الحزن، اليأس والأسى عليهما فكأنما تُسمع قطرات من الدم تقطر.

مثل هذا الانطباعات كانت تترك، وكانت تدرك ذلك، لكن ليس كله تماماً، فلو أنها كانت تدركه تماماً أو كانت أكبر سناً مما هي عليه الآن فلربما تحولت إلى صخرة بسبب جمالها ونظرت إلى نفسها كجوهرة نفيسة نادرة ينبغي أن يصان لمعانها وتحاط بالثراء، لكي تكون مشتهاة من الجميع، حيث عليها ببرود وهدوء أن تدع الآخرين بها يعجبون بها، لكنها لم تكن كذلك. كان جمالها أكبر سناً منها بكثير وتعرّفت فجأة على سلطته، لم تتعلم بعد أن تسند وجودها عليه بهدوء وثقة وتتركه يأخذها بعيداً، بالعكس، لقد بذلت جهدها لتستمتع، ازداد غنجها وولعها بالزينة، فيما كانت

Twitter: @alqareah

أذناها ترتشفان بشغف كل كلمة ثناء، كما كانت عيناها تتشربان بنظرات الإعجاب، وكانت تخبّئ كل ذلك بإخلاص في أعماق قلبها.

كانت في السابعة عشرة وكان اليوم أحداً، أول أحد بعد إحلال السلام. وقبيل الظهيرة شاركت بصلاة الشكر وها هي الآن واقفة تتزين لقضاء مشوار ما بعد الظهيرة بصحبة السيدة ريجيتز.

كانت المدينة في ذلك اليوم ضاجة وكأنها في تمرّد، وذلك لأن البوابات التي كانت مغلقة حتى قبيل إحلال السلام قد تم فتحها من جديد بعد أن كانت موصدة اثنا وعشرين شهراً طويلة، لذا فالجميع الآن يتوق للخروج لرؤية ما حدث للضاحية، وأين تموضع الأعداء وأين قاتل "جنودنا"، يتوجب على المرء الانحدار في خنادق ومن ارتقاء المتاريس حيث سيمكن إلقاء نظرة على أعناق الأنفاق وتقشير سلال التراب التي استخدمت كسواتر، هنا الموضع الذي كان قد تمركز أحدهم فيه، هنا سقط فلان، وهناك هجم إلى أمام وتم تطويقهم هنا، وكل شيء هناك كان جديراً بالملاحظة، ابتداء من آثار عجلات عربات المدافع وجمر الحرّاس المتّقد إلى لوح السياج العتيق المثقوب بالرصاص وجماجم الجياد التي لوحتها الشمس، وكان ثمة حكايا وتأويلات، تصوّرات وجدال، ترتقي الخنادق وتنزل من المتاريس، تتسلّق الجدران وتهبط من السواري.

كان جيرت بيبر يتبختر هناك برفقة جميع عائلته كلها، دعس مئات المرات على الأرض واعتقد على الأغلب أن ثمة صوتاً مجوفاً غريباً يصدر منها، فيما كانت زوجته الممتلئة تسحبه بتلهّف من ردنه وترجوه أن لا يكون شديد التهوّر، لكنّ السيد جيرت

Twitter: @alqareah

يزيد الدعس شدّة. عرض ولده البالغ على خطيبته الصغيرة النقطة التي كان يتموضع فيها في الليلة التي ثقب الرصاص فيها معطفه الصوفيّ الغليظ، وأين نسف رأس ابن الخرّاط بقذيفة، فيما كان الأطفال الصغار يبكون لأنهم لم يسمح لهم بالاحتفاظ برصاص البنادق التي عثروا عليها لأن من الممكن أن تكون مسمومة، كما قال إيريك لاوريتزن الذي كان بدوره هناك، ثم مضى ولكز التبن شبه المتعفّن حيث كانت ثكنة الجنود لأنه تذكّر حكاية عن جندي تمّ شنقه خارج مدينة ماغديبورغ[2] وعثر سبعة من رفاقه تحت وسادته على الكثير من النقود التي فرّوا بها قبل الشروع بسلب المدينة واستباحتها.

نعم، لقد كانت نزهة بحقّ، الحقول الخضر والطرق الرمادية البياض كانت مرقّطة بالناس الذين يأتون ويذهبون جائلين حول المكان، متفحّصين مواضع يعرفونها حق المعرفة وكأنها عالم أكتشف حديثاً أو جزيرة لم يعرفوها قبلاً ثم انبثقت فجأة من قاع البحر، وكان هنالك العديد منهم، حينما لمحوا الريف يمتدّ أمام ناظريهم حرّاً ومفتوحاً، حقلاً وراء حقل ومرجاً وراء مرج، تملّكتهم فجأة شهوة التجوال وظلّوا يسيرون ويسيرون وكأنهم سكارى من رحابة الفضاء، من سعة مسافة بلا تخوم. لكن عند العصر، قريباً من وقت العشاء، استدارت مع ذلك خطى أغلبهم صوب المدينة ملتمسين الحي الشمالي، حيث تقع مقبرة كنيسة القديس بطرس محاطة بالحدائق الفسيحة لأن موضة كانت سائدة منذ الأيام الخوالي أن يتنزّه المرء هناك بعد صلاة المساء في آحاد الصيف ويستنشق الهواء النقي تحت ظلال الأشجار الخضر. في الفترة التي عسكر فيها العدو أمام المتاريس اضمحل هذا التقليد

Twitter: @alqareah

من تلقاء نفسه وأضحت المقبرة خاوية في أيام العطل مثلما هي في الآحاد، لكن هذا اليوم بعث التقليد من جديد، ومن كلا المدخلين عبر الشارع الشمالي تقاطر الناس كلهم، النبلاء والمواطنون، الرفيع منهم والوضيع، جميعهم تذكروا أشجار الزيزفون الورافة في مقبرة القديس بطرس.

بين المتاريس المعشوشبة وعلى شواهد القبور العريضة جلس المواطنون في حشود مرحة، الرجل وزوجته، الأطفال والعارف، مستمتعين بعشائهم، بينما كان صبي الحرفي واقفاً في الخلف يمضغون بمتعة خبز الأحد اللذيذ فيما هو يقف منتظراً حاملاً السلّة. صغار الأطفال كانوا يتهادون وأياديهم مليئة بفتات الخبز نحو صغار الشحاذين الجائعين المتسلقين الجدار، الصبيان المتعطشون للمعرفة يتهجّون النقوش الطويلة على شواهد القبور فيما آباؤهم يصغون إليهم بإعجاب، بينما الأمهات والبنات الصغيرات كنّ يدققن في ثياب المتنزهين، ففي ذلك الوقت بالذات كان السادة يمضون جيئة وذهاباً في المماشي الفسيحة إذ عادة ما يأتون بوقت متأخر قليلاً عن غيرهم بعد أن يكونوا قد تناولوا عشاءهم إمّا في البيت أو في أحد المطاعم المتواجدة خلف الحدائق.

كان هناك سيّدات متكبّرات وآنسات لطيفات، مستشارون كهول وضبّاط شباب، سادة بدناء ومندوبون أجانب. هنا سار أشيب الشعر النشيط هانس هانسن مبتسماً لجميع الجهات، فيما كان يخطو بتؤدة خلف الثري العجوز فيليم فيورن ويصغي إلى صوته المصفّر. أقبل كورفيتس ترول والمتكبّر أوتو كراج، هنا وقفت السيدة إيدا دو ذات العينين الرائعتين وتحدثت مع العجوز أكسل أوروب ذي الابتسامة الأبدية والأسنان الكبيرة، فيما كانت زوجته

Twitter: @alqareah

المحدودبة، السيدة سيدسل غروبة، تخطو مبتعدة على مهل بصحبة أختها ريتجيز وماريا النافذة الصبر، كما كان هناك جيرسدورف، وسشاك، وثورسن ذي الخصلات الشهباء، وبيدر ريتز ذو الكساء والسلوك الإسبانيين.

أولريك فريدريك كان يسير هناك أيضاً برفقة نيلس روسنكراندس، الكولونيل الشاب الجسور، ذي الطبيعة الفرنسية والإيماءات المفعمة بالحياة.

حينما التقوا بالسيدة ريتجيز والأخرين حياهم أولريك فريدريك بتحية باردة ورسمية وأراد أن يمضي في طريقه، لأنه منذ طلاقه من صوفيا أورنه كان يحمل ضغينة نحو السيدة ريتجيز التي كانت، باعتبارها أحد أشدّ المؤيدين حرارة للملكة، تحوم حولها الشبهات في أن لها إصبعاً في اللعبة، لكن روسنكراندس توقّف ورجاهم أكسل أوروب بحرارة إلى تناول طعام العشاء معهم في حديقة يوهان أدولف، فكان من الصعب التملص فذهب الاثنان معهم.

بعد قليل كانت المجموعة كلها تجلس في السرداق القرميدي ومنهمكة في تناول الأطباق الريفية التي قدّمها الجنائنيّ لهم.

"هل هذا صحيح، هل يمكن للمرء أن يصدق"، سألت السيدة إيدا دو، "أن الضباط السويديين يفتنون إلى هذه الدرجة فتيات شيلاند بسلوكهم اللطيف حتى أنهن سافرن معهم جماعات إلى خارج البلاد والمملكة؟".

"نعم، هذا صحيح"، ردت السيدة سيدسل غروبة، "على كل حال بالنسبة لتلك الفتاة الوقحة، الآنسة داير".

"ومن هي داير في الواقع؟" سألت السيدة ريتجز.

Twitter: @alqareah

"آل داير من مقاطعة سكون كما تعرفين يا أختاه، أولئك ذوي الشعر الفاتح، وهم متصاهرون جميعاً مع آل بويتز. تلك التي هربت من القرية كانت ابنة هينتغ داير من نيرجورد الغربية، ذلك الذي تزوج من سيدونيا، كبرى بنات أوفه بويتز، وقد حملت معها بلا ريب في علب وأكياس ما استطاعت من أغراض أبيها، ملاءات وأكياس الوسائد، أواني الفضّة وما توفّر من قطع نقدية".

"نعم"، ابتسم أكسيل أوروب، "الحب الكبير يستوجب حملاً ثقيلاً".

"بلى، لكي يفهم"، أكّد أولوف دو، كان يخبط دائماً بيده اليسرى حينما يتحدّث، "الحب، لكي نفهمه، إنه، إنه لشديد".

"الحب"، قال روسنكراندس ومسّد بنعومة على شاربه بطرف خنصره الصغير،:إنه مثل هرقل في ثياب امرأة، ناعم في سلوكه وفاتن ويبدو عليه كل مظاهر الوهن والوداعة، لكنه يحمل كذلك في دواخله من القوّة والمكر ما يكفي لاجتياز اختبارات هرقل الاثني عشر جميعاً".

"نعم"، قاطعته السيدة إيدا دو، "عشق الآنسة داير لوحده كفيل بإيضاح أن بالإمكان على الأقل إنجاز أحد اختبارات هرقل لأنه نظّف الصناديق والخزانات مما كانت تحتوي عليها، بنفس القدر الذي نظف فيه أورياس، أو لا أدري ما اسمه، إسطبله كما تعلمون".

"أنا أعتقد بالأحرى"، قال أولريك فريدريك مستديراً صوب ماريا غروبة، "أن الحبّ مثله مثل من يسقط في النوم في صحراء ويستيقظ في بستان متعةٍ مدهش وساحر، لأنّ للحب مثل هذه القدرة، فبإمكانه أن يغيّر من روح الإنسان فيستحيل ما كان قاحلاً

Twitter: @alqareah

ومقفراً من قبل إلى شيء مشرق في العيون بكل صنوف البهجة والبهاء، لكن ما هي طبيعة أفكارك عن الحب، أيتها الآنسة الجميلة ماريا؟".

"أنا؟"، سألته، "أنا أعتقد أن الحب يشبه الماسة، فهو مثل الماس مدهش وساطع حينما نرى إليه، هكذا هو الحب رائع ولذيذ، ومثل الماس يكون الحب سامّاً لمن يبتلعه، وهكذا فإن الحب أيضاً نوع من أنواع السموم أو أمراض الهذيان المدمِّر لمن التاث به، على الأقل حكم المرء من خلال ملاحظته للسلوك الغريب الذي يسلكه العشّاق وعلى المحادثات الغريبة التي يجرونها".

"نعم"، همس أولريك فريدريك بشهامة، "الشمعة يمكن بيسر أن تفسّر السبب للفراشة التعيسة المهووسة بضوئها!".

"بلى، أنتِ على حق يا ماريا"، بدأ أكسل أوروب حديثه ثم صمت من جديد ليبتسم ويومئ برأسه لها، "بلى، بلى، هذا أمر يتوجب تصديقه، فالحب ليس سوى سمّ يسري في الدم، وإلاّ لِمَ يجعل السحرة الأشخاص ذوي الدم البارد يغلون بأشدّ العواطف التهاباً بعد تناولهم إكسير الحبّ أو خمرته؟".

"أوه كلاّ، تباً لهذا!، قاطعته السيدة سيدسل، "لا تتحدّث أبداً عن أعمال كافرة شنيعة مثل هذه، خصوصاً في يوم الأحد!".

"يا عزيزتي سيدسا"، أجابها، "ليس من إثم في ذلك على الإطلاق، بالعكس...كلا... كلا... أتسمّي هذا إثماً، يا حضرة الكولونيل جيلدنلو؟ - كلا؟ - بالتأكيد لا! ألم يتحدث حتى الكتاب المقدّس عن الساحرات والرُّقى الشريرة؟ بلى، لقد فعل ذلك، فعل ذلك طبعاً. كلا، ما أريد قوله هو أن جميع انفعالاتنا، كما أعتقد، لها مقعدها الذي تستوطن فيه من الدم، فإذا ما اشتعل

Twitter: @alqareah

أحدهم غضباً ألا يشعر بالدم يفور عبر جسده حتى يكاد يطفح من العينين والأذنين؟ وإذا روّع الإنسان فجأة ألا يشعر وكأنّ الدم يتسرب من قدميه وتعتريه قشعريرة البرد في الحال؟ أتعتقدين أن لا سبب لكون الحزن شاحباً وفاقد الدم، بينما البهجة حمراء مثل وردة؟ مستحيل، أقول لك، مستحيل! البشر كلهم يتأثرون بسبب حالة معينة للدم وحركته. وبالنسبة للحب، فإنه لا يجيء إلاّ بعد تبدّل الدم عند السابعة أو الثامنة عشرة من العمر بسبب الحرارة والبرودة وينضج في الشرايين ثم يبدأ بالتخمّر مثل نبيذ العنب الطيب تماماً، لأنّ الحب المختمر في الدم يغلي ويزبد، إنه يبعث بالحرارة وهو يتدفق في طريقه لذلك لا يعود أي إنسان هو نفسه تماماً طالما كان يجري في عروقه، لكنه بعدئذٍ يصفو كأيّ مادة مختمِرة أخرى ويصبح أكثر طواعية ورقّة، أقلّ حرارة وتوتراً. نعم، هنالك شبه آخر له بالنبيذ، فكما أنّ النبيذ الرفيع يفور ويزبد في كل سنة ويبدو وكأنه على وشك التخمّر، وحينما تزهر الكرمة عند قدوم الربيع، هكذا تصبح أمزجة الناس جميعاً، حتى الكهول منهم، بوقت قصير قبل حلول الربيع يجنحون بدرجة أكثر مما هو مألوف إلى الحبّ ولهذا سببه الحقيقي، وهو أن الدم لا يمكنه نسيان فترة الاختمار في ربيع الحياة على الإطلاق ويظل يتذكره في كل مرّة يعود فيها الربيع في السنة، محاولاً أن تخميره من جديد".

"بلى، الدم"، أقرّ أولاف دو، "لكي نفهم، الدم كما ينبغي أن يفهم فإنه مسألة رفيعة بما فيها الكفاية لكي يجب أن تُفهم".

"نعم، هي كذلك"، هزّت السيدة ريجيتز رأسها، "نعم، كل شيء يفعل فعله في الدم، كلا من الشمس والقمر والعاصفة الشديدة الموشكة، هذا أمر مؤكد كما لو أنه مدموغ".

Twitter: @alqareah

"وهكذا أيضاً أفكار الناس الآخرين"، أضافت السيدة إيدا. "أنا أعرف ذلك من أختي الكبرى، نحن نرقد في السرير سويةً، وفي كل ليلة حالما تطبق جفونها حتى تشرع بالتنهّد وتمدّ ذراعيها وساقيها كأنها على شوك النهوض والذهاب إلى مكان يناديها منه أحد، وتبين بعد ذلك أنّ خطيبها المقيم في هولندا كان مبتلياً بالشوق إليها ويضطجع مفكراً بها ليلاً ونهاراً حتى أنها أصبحت لم تعد تعرف ساعة سلام واحدة، وأضحت صحّتها - ألا تتذكرين يا قلبي السيدة سيدسيل، كيف يكون بصرها واهياً وكليلاً طوال إلى أن يعود يورغن بيلس إلى البيت من جديد؟".

"فيما كنتُ أتذكر؟ وهل في ذلك شك يا عزيزة روحي! - لكنها تفتحت بعد ذلك مثل برعم الوردة الجديد بالنظر. - فليباركني الرب، كانت أول رقدة لها..."، ثم واصلت الحديث حول الموضوع همساً.

استدار روسنكراندس نحو أكسل أوروب. "إذن كنت تعتقد"، قال له، "أن elixir d´am-our "إكسير الحب" هو جوهر مختمر مسكوب في الدم ويعصف به بعد ذلك، فإنّ هذا ينطبق تماماً على الحكاية التي أخبرني بها سابقاً السيد أولريك كريستيان في إحدى المرات التي كنا نتمترس فيها سويّة عند السور. حدث ذلك في أنتويرب في نزل داس ترويس بروشت، حيث كان يقيم بشكل مؤقت. ذات صباح وقعت عيناه في القدّاس على آنسة جميلة، جميلة جداً، وكان قد نظر نحوها بصورة لطيفة تماماً، وبقيت طوال اليوم لا تخطر طوال على باله. بعدها حين ولج حجرته في المساء كانت ثمة وردة موضوعة على رأس سريره، فالتقطها وشمّها، وعند هذه اللحظة بالذات تمثلت صورة الآنسة الجميلة حيّة أمام ناظريه

Twitter: @alqareah

وكأنها مرسومة على الجدار، فأصابته نوبة توق مفاجئ وعنيف إليها، حتى أنه كان قال لي أنه كان على وشك الصراخ بملء صوته من شدّة الألم. نعم، لقد اجتاحه الهياج والاضطراب حتى أنه اندفع خارجاً من النزل مهرولاً وهو يصرخ في الجادة صعوداً ونزولاً و:انه شخص مسحور لا يعي من نفسه حاله شيئاً. بدا وكأن شيئاً ما يجرّه ويجرّه ثم يكويه بالنار، وظل يعدو على هذه الشاكلة حتى بزغ الفجر".

هكذا ظلوا يتحدثون مدة إلى أن غربت الشمس قبل أن يتفرّقوا ويمضوا كل إلى منزله عبر الشوارع المظلمة.

كان أولريك فريدريك صامتاً طوال الوقت وتقريباً لم يشارك بكلمة في الحديث العادي، لأنه كان خائفاً أن ينقل أحد منهم شيئاً من حديثه عن الحب فيعتبرونه بمثابة ذكريات شخصية أو انطباعات من علاقته بصوفيا اورنة، لكنه أيضاً لم يكن في مزاج يسمح له بالحديث. وحينما بقي وحده مع روسنكراندس ظل يجيبه إجابات مقتضبة مشتتة جعلت رفيقه ضجراً منه فتركه ومضى في طريقه.

استدار أولريك فريدريك ميمماً شطر المنزل، حيث كانت لديه آنذاك شقة تقع في روزنبرغ، وبما أن خادمه كان في الخارج فلم تكن هناك أي شمعة موقدة، فجلس وحيداً في العتمة في الردهة الكبيرة حتى منتصف الليل تقريباً.

كان في مثل هذا المزاج الغريب، نصف مخدّر، نصف متوجّس، مزاج من حل به الوسن، حيث تنحدر الروح على غير إرادة منها في تيار بطيء منزلق، فيما صور مثل الضباب تمرق من وراء عتمة الأشجار الفسيحة، وأشباه الأفكار مثل فقاقيع كبيرة باهتة الضوء ترتفع إلى الأعالي من النهر المعتم، تنزلق وتنزلق ثم تنفجر.

Twitter: @alqareah

صدى الحديث الذي دار هناك، الحشد الملون في فناء الكنيسة، ابتسامة ماريا غروبة، السيدة ريجيتز، الملكة، عطف الملك، غضب الملك آنذاك - حركة يد ماريا غروبة، صوفيا أورنة، - شاحبة وبعيدة، ثم أشدّ شحوباً وأكثر نأياً، - الوردة عند موضع الرأس في السرير وصوت ماريا غروبة، الإيقاع الخاص لبعض الكلمات، نغماتها - كان يجلس مصغياً إليها ومصغياً مرة بعد أخرى وهي تتأرجح خلال الصمت.

نهض وسار نحو النافذة، فتحها واتكأ بكوعه على الإطار الفسيح. كم كان ناضراً كل شيء - منعشاً وهادئاً!

الأريج الحلو، اللاذع للورود التي برّدها الندى، المرارة المنعشة للأوراق المتفتحة حديثاً، ورائحة النبيذ الحريفة المنبعثة من شجيرات القبقب المزهرة التي يحملها النسيم نحوه. مطر ناعم، ناعم يهطل من السماء باسطاً عتمة فسيحة، زرقاء ترتعش فوق الحديقة. غصون شجرة اللاركس السود تسدل حجاباً مورقاً من البتولا، والتيجان المدورة لأشجار الزان تنتصب مثل ظلال تتنفس في خلفية من ضباب منزلق، فيما أشجار الطقسوس المقلّمة كانت تنتصب في الفضاء مثل أعمدة سود لمعبد بلا سقوف.

كان السكون عميقاً مثل قبر، باستثناء صوت قطرات المطر المتساقط، لم يكن يسمع غير صوت واهن، رتيب يشبه همساً يموت وينبعث ثانية بعد موته خلف جذوع رطبة، متلألئة.

كم غريب هذا الهمس حينما يصغي المرء إليه! كم هو كئيب هذا الصوت! أكان مثل خفقات أجنحة خفيفة لأسراب من الذكريات التي تحلق عابرة في البعيد؟ أم مثل خشخشة خفيفة في الأوراق الجافة للأوهام المضاعة؟ - آخ، كم يشعر بالوحدة،

Twitter: @alqareah

بوحشة الوحيد المنبوذ! من بين جميع القلوب التي تخفق في سكون الليل ما من قلب يتوق إليه... فوق الأرض كلها ثمة شبكة من خيوط لا مرئية تربط الروح مع الروح، خيوط أقوى من الحياة، أقوى من الموت، لكن في تلك الشبكة كلها ما من خيط يصل إليه. شريد، منبوذ! منبوذ؟ - أهذا رنين الأقداح والقَبَل في الخارج؟ أذاكَ لمعان الأكتاف البيض والعيون السود؟ أهذه قهقهة تصدح في سكون الليل؟ - وماذا يعني؟ أليس من الأفضل أن تقطر مرارة العزلة ببطء ولا تلك الحلاوة المسمومة، المقرفة... أوه، اللعنة على كل شيء! أنا أنفض غبارك عن أفكاري، أيتها الحياة الكاذبة، حياة للكلاب... للعميان، للمساكين... - مثل وردة! آه يا ربّي، احرسها واحمها في ثنايا الليل العميق! آه، أن تكون حارسها وحاميها، مهّد كل طريق، واحمها من كل ريح... كم جميلة هي... غاية في الجمال... تصغي مثل طفلة... - مثل وردة!...

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

السيّدة ماريّا غروبّة

Fru Marie Grubbe

رواية

ي. پ. ياكوبسن

J. P. Jacobsen

ينس بيتر ياكوبسن

قاص وشاعر دنماركي بارز ولد عام 1846 وتوفي سنّ مبكّرة عام 1885، لكنه استطاع خلال حياته القصيرة تلك أن يؤثر في الأدب الدنماركي كما لم يؤثر فيه أحد من قبل؛ خصوصاً بعد روايته المتميزة **السيدة ماريا غروبة** التي تصف التغييرات التي طرأت على حياة امرأة أرستقراطية مرّت بثلاثة تحوّلات طبقية بعد زواجها من ابن الملك، ثم من أحد ملاّكي الأراضي، وبعدها من سائس الخيول في العزبة التي تقطن فيها، وكانت في كل من تلك الزيجات تتبع قلبها لا غير.

رواية **السيدة ماريا غروبة** رواية تاريخية تنطوي على فهم سايكلوجي عميق لذهنية المرأة. إنها عمل كبير يضرب في أعمق أعماق الروح، وموشى بلغة شاعرية فذّة.

ISBN 978-614-01-0848-6

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات. كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

لوحة الغلاف: Marie en Ravello 1890, Kroyer Peder Severin – تصميم الغلاف: سامح خلف